الاصول الدينية للمجتمع الروسي
دراسة تاريخية في الوثنية السلافية والمسيحية والشامانية

أ.د. اسامة عدنان يحيى   أ.م.د. ايناس سعدي عبدالله

كلية الآداب/ الجامعة المستنصرية

الملخص.

لا نعرف متى بدأت الجذور الاولى للمعتقدات الدينية في روسيا القديمة، لكن يمكن القول بشكل عام ان السكان الاوائل في الاراضي الروسية لم يكن لهم اية مفاهيم دينية محددة خلال العصور السحيقة، غير ان عجز الانسان في صراعه مع الطبيعة وتصوراته الغامضة عنها ولدت عنده مع الزمن ايماناً بقوى مقدسة، اي ولدت الدين، وقد اضفى الناس على مختلف الظواهر الطبيعية صفة القوة الخارقة وحولوها الى آلهة؛ وتشير البيانات الاثارية ان اقدم الادلة الدينية في روسيا تعود الى الالف الرابع قبل الميلاد، حيث كُشفت اقدم مراكز العبادة.

مع بروز القبائل السلافية، حدثت تطورات دينية في الاراضي الروسية، إذ عبد السلاف قوى الطبيعة مثل غيرهم من الشعوب القديمة، ورغم اننا اليوم لا نستطيع ان نميز الكثير من ملامح الديانة السلافية القديمة بسبب الدمار الذي حل بديانتهم على يد رجال الدين المسيحيين، الا ان ما تبقى من اثار وتقاليد شفاهية ساعد الباحثين كثيراً في اعادة بناء ملامح تلك الديانة.

يمثل اعتراف امير كييف ڤلاديمير الاول عام ٩٨٨ بالديانة المسحية كدين رسمي لدولته الحدث الاكثر اهمية في تاريخها، فقد اسهم ذلك على تطوير الثقافة والتعليم هناك، فأصبحت الكنيسة الاداة الرئيسة لنقل الحضارة البيزنطية الى روسيا لا في ميادين الآداب والفنون والموسيقى. وشهد تاريخ الكنيسة خلال المدة من اواخر القرن العاشر قبل الميلاد الى اوائل القرن العشرين تطورات كبيرة في علاقتها مع السلطة من جهة، والحركات المناهضة لها من جهة ثانية لاسيما مع بروز حركات الهراطقة في القرن الخامس عشر الميلادي. ولم ينتهِ دور الكنيسة كسلطة ذات نفوذ سياسي كبير في روسيا إلا مع عهد القيصر بطرس الكبير(١٦٨٢-١٧٥٢)، ثم عهد كاترين الثانية(١٧٦٢-١٧٩٦) اللذان اسهما بشكل فاعل في انهاء ذلك النفوذ الكنسي الواسع.

رغم دخول المسيحية الى روسيا فإن الافكار والتقاليد الوثنية لم تنتهِ بل ظلت مترسخة داخل المجتمع الروسي، فمن جانب ظلت الطقوس الشامانية قائمة في سيبيريا حتى القرن العشرين، ومن جانب اخر تم اضفاء العديد من صفات الآلهة القديمة الى القديسين المسيحيين، ومن جانب ثالث ظلت التقاليد السحرية قائمة حتى قبيل الحرب العالمية الاولى، مما يشير قطعاً الى ان المسيحية لم تستطع ان تخترق المعتقدات الشعبية الروسية القديمة.

Abstract

We do not know when the first roots of religious beliefs began in ancient Russia, But it can be said generally that the first peoples in the territory of Russia did not have any specific religious concepts during the past ages, But the inability of man to struggle with nature and his mysterious perceptions of him, led over time, the appearance of the sacred beings, in the sense that led to the emergence of religion; People have added to the various natural phenomena the supernatural power and turned it into gods; Archaeological data indicate that the

oldest religious evidence in Russia dates back to the fourth millennium BC, revealing the oldest places of worship.

With the rise of the Slavic tribes, religious developments took place in Russian territory, The Slavs sanctified the force of nature like other ancient peoples, Although today we cannot distinguish many of the features of ancient Slavic religion because of the destruction of their religion by Christian clergy, However, the remaining traces and oral traditions have helped researchers to rebuild the features of that religion. The admission of the governor of Kiev, Vladimir I, to Christianity in 988 as an official religion in his kingdom is the most important event in the history of Russia, This has contributed to the development of culture and education there, and the Church has become the main instrument for the transfer of Byzantine civilization to Russia, in the fields of literature, art and music. During the period from the end of the tenth century BC until the beginning of the twentieth century, the history of the Church witnessed great developments through its relationship with the authorities on the one hand and the movements hostile to it on the other, especially with its emergence from heretical movements in the fifteenth century AD. The role of the Church as an authority with great political influence in Russia ended only with the reign of Caesar Peter the Great (1682-1752) and the reign of Catherine II (1762-1796), who effectively contributed to the end of that vast clerical influence.

Despite the entry of Christianity into Russia, pagan ideas and traditions have not ended, but have remained entrenched in Russian society, On the one hand, the Shamanic rituals continued to exist in Siberia until the twentieth century, On the other hand, many of the attributes of the ancient gods were added to the Christian saints, On the third side, magical traditions existed even before the First World War, which clearly indicates that Christianity could not penetrate the old Russian popular beliefs.

- **الجذور الأولى للمعتقدات الدينية: ما قبل السلافية.**

لا نعرف متى بدأت الجذور الاولى للمعتقدات الدينية في روسيا القديمة، لكن يمكن القول بشكل عام ان السكان الاوائل في الاراضي الروسية لم يكن لهم اية مفاهيم دينية محددة خلال العصور السحيقة، غير ان عجز الانسان في صراعه مع الطبيعة وتصوراته الغامضة عنها ولدت عنده مع الزمن ايماناً بقوى مقدسة، اي ولدت الدين؛ واخذ الناس لجهلهم بأسباب الموت والمرض يشعرون برهبة متزايدة منها، ويتصورون ان للإنسان روحاً تستطيع ان تغادره، وهكذا ظهر الإيمان بالآخرة. كما اضفى الناس على مختلف الظواهر الطبيعية صفة القوة الخارقة وحولوها الى آلهة، فألهوا الرعد والبرق والحيوانات الوحشية وجهدوا في ارضائها مقدمين لها الاضاحي وملتجئين الى الدعوات السحرية، وسرعان ما برزت عبادة الارض الام أو إلهة الخصب، وعبادة الاسلاف[١].وتم الكشف مؤخراً(عام ٢٠١٤) عن مستوطنة ضخمة في اوكرانيا فيها معبد كبير يعود تاريخه الى حوالي ٤٠٠٠ قبل الميلاد، وتبلغ مساحته(٦٠×٢٠م)، وهو على مؤلف من طابقين، ومشيد من الخشب والطين، ويحيط به فناء، والطابق العلوي ينقسم الى خمس غرف[٢]. واشارت التنقيبات الاثرية التي جرت في موقع تريبولي(Tripolye)

قرب كييف(Kiev) عن وجود اقدم القرى الزراعية في اوروپا الشرقية، وقد عاش سكان تريبوليي في الالفين الثالث والثاني قبل الميلاد[٣]، ولا نمتلك ادلة كثيرة عن معتقداتهم الدينية سوى تماثيل النساء المصنوعة من الفخار والتي تصور إلهة الخصب، وحامية القرية[٤]، وهي من النماذج التي تُعرف آثاريا باسم الإلهة-الام. وقدمت لنا قرية مايكوب في القوقاز الشمالي[٥] دلائل حول المعتقدات الجنائزية، اذ دُفن زعيم القرية في قبر، وزيُنت ملابسه بحُلي من المعادن الثمينة والاحجار النادرة، وعلى رأسه شارة السلطة وهي أكليل من الذهب، وقد أوضحت لنا تقاليد الدفن اقدم الادلة على الاضاحي البشرية، فقد كان قادة قرى القوقاز الاغنياء يملكون كثيراً من العبيد من الذكور والاناث، وكان هؤلاء العبيد في حالة موت سيدهم يقتلون ويدفنون معه[٦].وفي روسيا الوسطى قامت حضارة القبور الدياميس ذات الغرف المدفنية البيضوية الشكل والحفر المدعمة بالأوتاد في الالف الثاني قبل الميلاد[٧]. وكانت تقاليد السكيثيين[٨] الذين سكنوا في شمال مناطق البحر الاسود وغرب نهر الفولغا في الالف الاول قبل الميلاد تحتم دفن الزعماء ومعه زوجاته وعبيده وخيوله بعد قتلها، وكانت القبور تُغطى بأكوام عالية من التراب، وقد تم العثور اثناء التنقيب في هذه الاكوام على مدافن غنية فيها الكثير من الاواني الذهبية والفضية المُزينة بمشاهد من حياة السكيثيين، وكذلك الاسلحة الفاخرة ومعدات الخيل[٩].

- **القبائل السلافية.**

السلاف من القبائل الهندية-الأوروپية يتحدثون نمط من اللغات المشتقة من المجموعة اللغوية الاكبر المعروفة باسم البالتو-السلاڤية(Balto-Slavic)، وان السلاف اكبر مجموعة عرقية لغوية في اوروپا، ويتم تصنيف المجموعة السلاڤية اليوم الى ثلاث مجموعات(انظر خارطة رقم١) هم، السلاف الشرقيون وهم: البيلاروسيون والروس والاوكرانيون؛ والسلاف الغربيون منهم" التشيك، والسلوڤاك، والصربيون والموراڤيون، والكاشبوس؛ والسلاف الجنوبيون ومنهم البوشناق، والبولغار، والكرواتيين، والمقدونيين، والسلوڤيين[١٠].

كان السلاف الشرقيين اقدم اسلاف الشعب الروسي الكبير والشعبين الاوكراني والبيلوروسي، وكانوا اقوى فروع القبائل السلاڤية الغفيرة التي سكنت اراضي اوروپا الوسطى والشرقية من اقدم الازمان، وفي القرون الاولى بعد الميلاد كان السلاف الشرقيون مع غيرهم من القبائل يسكنون اراضي تمتد من جبال الكاربات غرباً حتى اعالي نهر اوكا والفولغا شرقاً، ومن بحر البلطيق شمالاً حتى مصب نهر الدنيپر والدانوب جنوباً، وكانوا هم سكان هذه الاراضي الاصليين، فأسلافهم من القبائل المُزارعة والرعاة عاشوا في هذه الاراضي في الالفين الثاني والاول قبل الميلاد. وتتحدث قصة السنين الغابرة، وهي اقدم سجل روسي للحوادث، عن توزيع سكن السلاف الشرقيين، ويذكر واضع السجل اسماء اكثر من عشر قبائل سلاڤية كبرى، فقد عاش البولانيون بجوار نهر الدنيپر قرب كييف، وكان جيرانهم الدريڤلانيون والسيڤيريانيون والراديميتشيون؛ في حين عاش الدريغوڤيتشيون والكريڤيتشيون اعلى منهم على نهر الدنيپر ايضاً؛ وفي اعالي نهر اوكا عاش الڤياتيتشيون؛ اما السلوڤينيون فقد عاشوا في منطقة بحيرة ايلمين على نهر فولخوف[١١].

اقدم اشارة الى القبائل السلاڤية جاءتنا من المصادر الرومانية التي تحدثت عن الشعوب السلاڤية المبكرة مثل شعب الڤينيتي(Venedi) الذين كانوا يقطنون وسط اوروپا شرق القبائل الجرمانية، وغرب القبائل السرماتية في القرنين الأول والثاني الميلادي[١٢]. في حين يظهر السلاف في السجلات البيزنطية العائدة للقرن السادس الميلادي، كما هو الحال في روايات المؤرخ البيزنطي پروكوپيوس القيصري[١٣] الذي عاش في عهد الامبراطور جستنيان(٥٢٧-٥٦٥م) تحت اسم السلاڤينوي(Sclavenoi)[١٤]. يصف المؤرخ البيزنطي پروكوپيوس السلاف بأنهم: "...طويلو القامة جداً وأقوياء وجبارون، أما لون

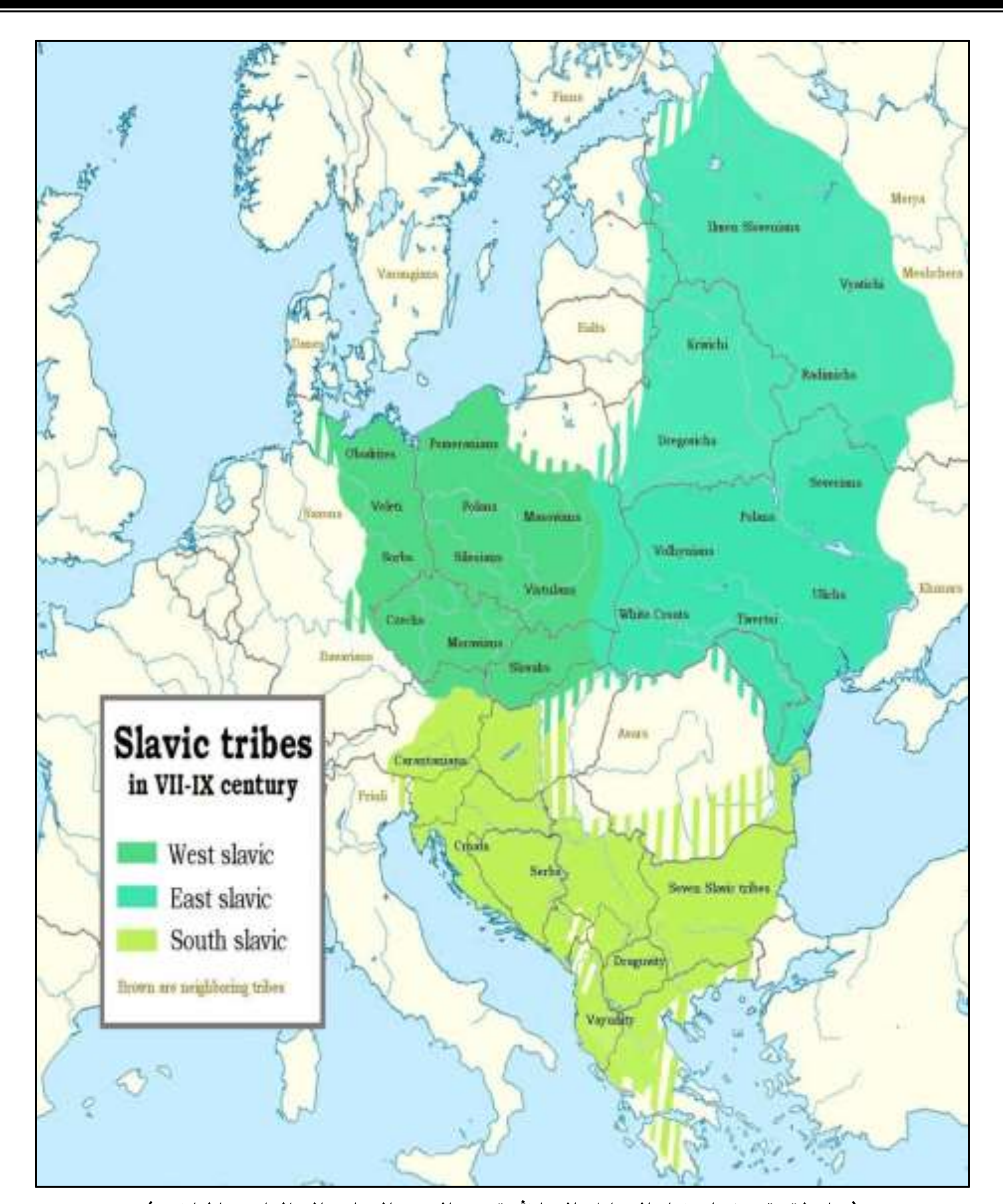
بشرتهم وشعرهم فهو ابيض ناصع أو ذهبي..."، وفي الحروب كان السلاف يشاركون في المعارك ويقابل اغلبيتهم الاعداء بالتروس والرماح في ايديهم، وهم لا يرتدون الدروع ابداً على حد وصف هذا المؤرخ، وبعضهم لا يرتدي القمصان ولا الاردية، بل يلبسون سراويل مشدودة بزنار عريض على الافخاذ، وبهذا الزي يذهبون لمقارعة الاعداء(١٥).

مارس السلاف الزراعة والرعي والتي تعد من المهن الرئيسية لديهم، اما القنص وصيد الاسماك وجمع العسل البري في الغابات فكانت من المهن الثانوية. وقد مارس السلاف الذين عاشوا في مناطق الغابات والسهوب الزراعة بعد الحراثة، فكانوا يحرثون حقولهم بمحاريث الخشبية ذات اسنان حديدية ونير خشبية مستعملين ماشية العمل من الخيل والثيران. اما في مناطق الغابات الاكثر شمالاً فقد مارس السلاف الزراعة بعد قطع الاشجار وحرقها، وكان الفأس الحديدي والمعول اداتين للعمل عندهم، وكانوا يبذرون البذور في الاقسام المحروقة من الغابة ويجمعون محصولاً وافراً طوال سنين عدة. وقد زرع السلاف الدخن والجاودار والقمح والشوفان والشعير، فضلاً عن البازلاء والعدس، واللفت والبصل والجزر والملفوف، والكتان والقنب لصنع النسيج؛ وكانوا يربون الحيوانات الاليفة مثل الخيول والابقار والغنم والخنازير والدجاج والبط والوز، ويربون الكلاب والصقور للصيد. وكانت الحدادة وصناعة الفخار والنسيج من الحرف الرئيسية، ومن الحديد المصهور في اتونات الحدادة كانوا يصنعون السيوف والفؤوس والمعاول والسكاكين والاسنان للمحاريث الخشبية. وكانت القبائل تتبادل البضائع فيما بينها، واستخدم الفرو الثمين مثل فرو السمور وفرو السنجاب كوسيلة للتبادل التجاري، بعد ذلك استعملوا قطع النقد الفضية المسماة بـ الغريفنا، وهي عبارة عن سبيكة من الفضة وزنها ٢٠٠ غرام. وكانت القبائل والشعوب المجاورة للأراضي الروسية تتاجر مع السلاف، فأدت تلك التجارة الى اغتناء رؤساء القبائل السلافية. وفيما بعد عُثر في الحفريات قرب كييف وسمولينسك ونوفغورود وغيرها من المدن على كثير من قطع النقود البيزنطية والآسيوية الوسطى والعربية. ومنذ القرن العاشر الميلادي سكت روسيا قطعة نقد تشبه الدرهم العربي والنقود البيزنطية. واعتباراً من النصف الثاني من القرن الثالث عشر ظهرت سبيكة بقيمة نصف غريفنا حلت محل الغريفنا نهائياً في القرن الخامس عشر(١٦).

اما النظام الاجتماعي لدى السلاف فقد امتازت القبائل السلافية بوجود عوائل ابوية كبيرة كانت تدير اقتصاداً جماعياً في الاراضي التي كانت تزرعها، وعاشت بضع عوائل في قرى مشتركة، وفي القرى السلافية في القرون الثالث الى الخامس الميلادي كانت تنتشر البيوت الخشبية محاطة بأسيجة خشبية عالية، وقريباً من هذه البيوت كانت تقع دار الحدادة ومخزن فيه طاحونة يدوية، وبناية كان الناس يشتغلون فيها بفتل الخيوط والنسيج وخياطة الملابس، وهناك كانت تقع حظيرة للمواشي. اما مسكن العائلة عند السلاف فكان على الاغلب مغروزاً في الأرض حتى منتصفه، فالسلاف كانوا يطمرون القسم الاسفل من المسكن في التربة، اما القسم العلوي فكانوا يبنونه من جذوع الاشجار، وكانوا يطلون الجدران من الخارج بالطين، ويخبرنا المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس عن منازلهم قائلاً: "يعيشون في اكواخ حقيرة واقعة على مسافات بعيدة الواحد عن الآخر، وهم جميعاً كثيراً ما يغيرون محل سكناهم". وفي داخل المسكن كانوا يضعون المقاعد والاسرة والمواقد ذات المدخنة، وكانوا يخزنون احتياطي الحبوب والطحين في الحفر أو في الاوعية الكبيرة، وكانت الادوات المنزلية قليلة وتتألف من اواني طينية وخشبية واباريق وادوات العمل الصغيرة. وكان السلاف في البداية يحرثون الارض سوياً، فالغابات المتاخمة للقرية والمراعي واماكن الصيد كانت مشاعة، وبعد ذلك صارت قطع الارض الصالحة للزراعة وادوات العمل والمواشي العامة ملكاً لعوائل منفردة، وكانت هذه العوائل تعيش في قرى صغيرة من ٣-٥ بيوت. وكانت عدة قرى تشكل جماعات متجاورة التي تسمى عند السلاف بالمير

أو الفيرف، وفي هذه الجماعة كانت العائلة تملك فقط قطعة الارض التي تحرثها، اما المراعي والغابات فقد بقيت كالسابق ملكاً للجماعة(١٧). ويشير الكتاب البيزنطيون ان السلاف كانوا منذ القدم يعيشون بحرية ولم يسمحوا لأحد بأن يستعبدهم، وكانوا يتشاورون في اجتماعاتهم الشعبية المسماة باسم الـ فيتشه حول ما كان مفيداً لهم أو مضراً بهم، وكان كل فرد يستطيع ان يُعبر عن رأيه في مجلس الـ فيتشه، اما القرارات فكانت تتخذ اما بالأجماع أو بأغلبية الاصوات. ومع ظهور الملكية الخاصة ازدادت عند السلاف اللامساواة في الاملاك، فقد تميز الاثرياء، الذين سماهم مسجل الحوادث التاريخية بـ: "أفضل الرجال"، عن غيرهم من السلاف. وكان السلاف يستخدمون في اعمالهم العبيد من اسرى الحرب، غير ان العبودية عند السلاف ميزاتها الخاصة، فـ السلاف: "لم يستعبدوا الأسرى لأجل غير مسمى، بل كانوا يحددون مدة معينة لاستعبادهم ثم يطلقون سراحهم اذا ارادوا ان يعودوا الى اوطانهم او ان يعيشوا مع السلاف كأناس احرار"(١٨).

لا نعرف الكثير عن النظام السياسي للسلاف، لكن المؤرخ البيزنطي پروكوپيوس يذكر: "ان قبائل السلاف والآنتيين(وهم السلاف الذين عاشوا بين نهري النديستر والدنيپر) لا يقودها شخص واحد، بل تعيش منذ القدم تحت القيادة الشعبية..."(١٩). ويبدو ان اللامساواة الاجتماعية كانت السبب الرئيس لظهور هيئات سلطة الدولة عند السلاف، وكانت الحروب الدفاعية والهجومية، التي خاضها السلاف ضد جيرانهم، قد وحدتهم في اتحادات قبلية، وكانت هذه خطوة هامة في طريق ظهور الدولة، وكانت الحروب تجلب الثراء لوجهاء القبائل والعشائر اكثر فأكثر؛ واصبح قادة القبائل امراء، ويطلق عليهم لقب كونياز وهو قائد قوات المشاة الذي يمتطي ظهر الحصان. وكان لعصبة الامير حصة كبيرة من الغنائم، وتميزت هذه العصبة عن جماهير المحاربين أو المقاتلين فأصبحت سنداً لسلطة الامير. والعصبة تتألف عادة من فرق الخيالة المسلحة الدائمة، وكان الأمير على رأس العصبة. اما ما كان يدعى بالعصبة الاقدم فهي تتكون من اكثر اعضاء العصبة وجاهة، اولئك الذين كانوا يمثلون المستشارين المباشرين للأمير في الشؤون الحربية والإدارية، وعددهم ليس كبيراً. وكانت هذه العصبة الاقدم نواة مجلس دوما البويار(مجلس الاعيان) وهو اعلى دائرة للدولة الروسية بين القرن الخامس عشر الى السابع عشر الميلادي. اما العصبة الصغرى فكانت تتكون من المحاربين العاديين المكلفين ايضاً بتنفيذ مختلف الواجبات القضائية والإدارية، ومع تطور ملكية الارض الاقطاعية تحول افراد العصبة الى مالكين عقاريين وصاروا احد عناصر تشكيل طبقة الاقطاعيين المسيطرة(٢٠).



(خارطة رقم ١: انتشار القبائل السلاڤية من القرن السابع الى التاسع الميلادي)

- **الوثنية السلاڤية**

كان السلاف الشرقيون وثنيين، فقد ألهوا قوى الطبيعة مثل غيرهم من الشعوب القديمة؛ فقد كان للسلاف آلهتهم الخاصة بهم، ونحن نقرأ في احد المصادر السلاڤية: "بدأ الامير فلاديمير في كييف وحده منفرداً، وأقام الأوثان فوق التل خارج الفناء: بيرون الخشبي ورأسه من فضة وفمه من ذهب؛ وخوروس؛ وداجبوغ؛ وستريبوغ، وسيمارغل، وموكوش. وشرعوا يقدمون لهم القرابين، وينادونهم آلهةً، واصطحبوا إليها أبنائهم وبناتهم"(٢١).

كانت تماثيل الآلهة السلاڤية مصنوعة من الخشب، ولذلك لم تبق منها شيء، ولكن في عام ١٨٤٨ تم العثور على تمثال سلاڤي من الحجر يعود للقرن التاسع الميلادي، لا يزال التمثال محفوظاً في متحف كراكوف، ويمثل هذا التمثال مجمعاً كاملاً من الآلهة، ويعطي تصوراً عن رؤية السلاف لبنية العالم، فإلى جانب بيرون احتوى التمثال الرباعي الابعاد على ثلاثة آلهة آخرين، ويمثل هؤلاء كلهم عائلة إلهية واحدة؛ اذ يقدم التمثال صور لآلهة مختلفة رُسمت وفق نظام محدد، ووفق تراتيبية من الاعلى الى الادنى، ففي الجزء الاعلى من التمثال صورت إلهات ذات قرن وذات خاتم يد؛ كما ظهر إله مع رمح وحصان وإله مع رمز الشمس؛ وقد قُسمت الآلهة في هذا التمثال الى طبقات، فالطبقة الاولى منه تمثل اكبر الآلهة، وهي آلهة السماء، والطبقة الوسطى هناك صور لرجال ونساء يمسك بعضهم بيد بعض،

وفي ادنى الطبقات صورة إله عجوز ساجد على ركبتيه، وهو يظهر من الامام، ومن الجانب. وهكذا يحمل هذا التمثال الحجري معطيات لا عن الآلهة والسلم التراتيبي فقط، بل عن بناء العالم المحيط أيضاً. اما الآلهة، فإن تلك الإلهة ذات القرن، وهو رمز الوفرة، فهي الإلهة موكوش(Mokoš) إلهة المحصول؛ والإلهة الأخرى التي تحمل الخاتم، وهو رمز الزواج، فهي الإلهة لادا(Lada)، إلهة الاعراس، وصور في المكان عينه الإله پيرون(Perun) برمح على جواده؛ اما الإله الذي تحمل ملابسه رسم يرمز الى الشمس فهو الإله داجبوغ(Dažbog) رب نور الشمس، وهؤلاء كلهم الآلهة العليا أي آلهة السماء. وثمة إله ظهرت صورته في اسفل التمثال ويبدو راكعاً على ركبتيه انه ڤيليس(Veles) إله الأرض والعالم الاسفل. وحسب المعطيات المتوفرة يبدو ان السلاڤ القدماء تصوروا العالم المحيط بهم مؤلفاً من ثلاث مستويات: في الأعلى اي في السماء يقيم الآلهة العظام؛ وفي الوسط يعيش البشر، وفي الاسفل يقع عالم الاموات[٢٢]. ووضع السلاڤ تماثيل الآلهة المصنوعة من الحجر أو الخشب في معابد أُطلق عليها اسم كوميرنيا، وكانوا يقدمون الى هذه الآلهة القرابين من الحيوانات والطيور والاضاحي البشرية احياناً، ويشير المؤرخ البيزنطي پروكوپيوس ان السلاڤ كانوا يعبدون الآلهة و: "يقدمون القرابين لها جميعاً"؛ وكان الكهنة-السحرة والعرافون يقومون بإداء الطقوس الدينية[٢٣].ويخبرنا پروكوپيوس ايضاً ان السلاڤ كانوا: "يعبدون الانهار والحوريات ومختلف الآلهة الأخرى"[٢٤]. وقد عبد السلاڤيون الهتهم المحلية، كما اقتبسوا أيضاً آلهة الاسكيثيين والفرس، اما ابرز الآلهة السلاڤية فهي:

١. **الإله دايڤيس(Dieves):** اقدم الآلهة السلاڤية، فهو إله السماء، وسلف كل شيء موجود، وهو بلا شك يعود بأصله الى الإله الهندو-اوروبي الذي يرد في النصوص الهندية القديمة ديو/ديڤا اي سماء، وبالتالي يمكن ان يكون له ارتباط بالإله الاغريقي زيوس(في الاصل ديوس). يطلق عليه اسم ديبيستيڤس(Debestevs) في المناطق المجاور لـ لاتڤيا(Latvia)، إذ تم تصويره كملك وسيم، يرتدي رداءً فضياً، وله حزام وسيف، ويعيش على تل مرتفع، في السماء في ابعد منطقة في العالم، في مملكة مغلقة لا يتم الدخول اليها إلا من خلال ثلاث بوابات فضية، وداخل جدران مملكته هناك قصره الريفي، ومملكته هذه محاطة بغابة لا يمكن اختراقها، وكل يوم يغادر قصره الريفي بوساطة عربة من ذهب أو على زلاجة من نحاس؛ وهذا الاله يختص بخصوبة الارض، ويحفز نمو المحاصيل ويدوس الحشائش الضارة بأقدامه أو تحت عجلات مركبته وتساعده بذلك الإلهة لايما (Liama)؛ وهو المسؤول عن مصير الرجال. وعلى الرغم من انه اقوى آلهة السلاڤ، إلا انه ليس ملك الآلهة، بل استلم هذا الدور الإله پيرون[٢٥].

٢. **الإله رود(Rod):** وهو إله المطر والخصوبة القديم، وهو يطابق الإله سڤانتوڤيت(Svatovit) كبير الآلهة لدى شعوب البلطيق وزوجاته يدعين الـ روزنات(Rozhanitsy)[الزوجة روزانيكا/Rozanica]، وقد اشارت المواعظ المسيحية الى هذا الإله والروزنات: "أخذ الهيلينيون يقيمون ولائم لـ رود الـ روزنات، وكذلك فعل المصريون، والرومان، وقد وصل هذا الإله الى السلاڤ، فأخذ هؤلاء يقيمون الولائم لـ رود والروزنات قبل پيرون إلههم". وكان رود في الاصل إله المزارعين، على الرغم من ان صفاته ذهبت ابعد من هذا الدور؛ وبشكل عام اصبحت الوهيته عالمية، فهو إله للسماء والمطر والصاعقة والحياة، وهذه الصفات ارتبطت به قبل ان تظهر عبادة پيرون. وكانت المواعظ المسيحية لاحقاً تُلح على طريق الحق: "للكل خالق واحد، وهو ليس رود". لقد كان رود إلهاً خالقاً وتشير الاساطير السلاڤية رود خلق الإنسان عن طريق رش الغبار أو الحصى على سطح الارض، وقد ولد منه كل شيء، وكان سيد الأرض وكل ما هو حي، ولاحقاً انتهى منصب رود كزعيم مجمع الآلهة السلاڤي لصالح الإله پيرون، واصبح مجرد إله يمثل حامياً للمنزل؛ اما الـ روزنات فهن من كن يمنحن الخصب، فهن خازنات الحياة، والحياة هي الماء قبل كل شيء، لذلك تخيلوا الـ روزنات في صورة إلهات سماويات يمنحن المطر، ومن البديهي انهن كن نصيرات الأمهات والفتيات والاطفال الصغار؛ وبعد ان اعتنق السلاڤ المسيحية تحولت الروزنات شيئاً فشيئاً الى والدة الإله(مريم)؛ وقد كان السلاڤ يحتفلون بعيد

رود والـ روزنات بإقامة الولائم الشعائرية في يوم الاعتدال الشتوي، وفي موسم جني المحصول الخريفي، فيقدمون للإله والإلهات الخبز، والعسل، واللبن المصفى، والفطائر[٢٦].

٣. **الإله بيرون(Perun)**:[وقد كُتب اسمه ايضاً بعدة صيغ: (پيروم/Perom)؛(پيرون/Peron)؛(پيكر/Pikker)؛(پيورون/Piorun)؛(پايرون/Pyerun)] هو زعيم المجمع الإلهي كله، إله حامية كييڤ(Kiev)، وإله البرق والرعد والحرب، ويجسد الليل في الاساطير الروسية، والذي يحمل الشمس اسيرةً، وهو إله معروف لدى الشعوب الهندية-الأوروبية الأخرى، فهو عند الجرمان[٢٧] ثور(Thor) أو دونار(Donar)، وعند اللاتڤيين، والليتوانيين، والبروس[٢٨] هو الإله الأعلى پيركونس(Perkunas)[٢٩]؛ وبما انه إله هندو-اوروبي لذا ربما كان اصل اسمه يعود من الكلمة پارانجانايا(Paranjanya) الهندية، والكلمة تمثل لقب لرب العاصفة الهندوسي اندرا(Indra)؛ مع ذلك هناك افتراض ان هذا الإله جاء من طقوس محلية في روسيا تحورت حول الصاعقة، واسمه مرتبط بشجرة البلوط والغابة؛ ويبدو ان شجرة البلوط كانت شجرة الإله پيرون، ويقال انه في نوڤغورود(Novgorod) كانت هناك صورة لـ پيرون على شكل انسان يحمل بيده حجر الرعد، وكانت نيران البلوط توقد على شرفه ليلاً ونهاراً، واذا انطفأت يدفع المسؤولون عنها حياتهم ثمناً لذلك، ويبدو ان پيرون مثل زووس الاغريقي وجوبيتر الروماني هو كبير الآلهة لدى شعبه فهذا المؤرخ البيزنطي پروكوپيوس يخبرنا عن هذا الإله: "يعتقد السلاڤيون ان احد الآلهة، صانع البروق، هو وحده سيد الاشياء كلها، وانهم يذبحون له الثيران وكل الاضاحي...". وپيرون السلاڤي يظهر في التقاليد المحلية كمقاتل رأسه من الفضة وله شارب من الذهب، وهو سيد العالم، عاش في السماء ويجوبها في مركبة ملتهبة تجرها ماعز ضخمة تدعى بيلي(Billy) أو على صهوة حصان، والرعد صوت مركبته؛ وله سيطرة مطلقة على الطقس، وعندما يغضب يسبب العواصف الرعدية، ويرسل البرق، ويطلق سهامه-الصواعق؛ فتصيب سهامه الإنسان، لذا اعتقد السلاڤ ان ذلك لا يقع إلا اذا كان إله الرعد يريد ان يجندل روحاً نجساً سكن جسد الشخص المعني، ولذلك حرموا بكاء على من تقتلهم صواعق پيرون، لأنهم بذلك تحرروا من الدنس؛ كما عُدت صواعق پيرون رمزاً للخصوبة لأنها تُيقظ الارض في فصل الربيع من سكون الشتاء القاتل. ويبيت إله الرعد في جذع شجرة مقدسة؛ وكإله للجنود يحمل پيرون على كتفه القوس والسهام، وبيديه الهراوة الثقيلة أو الرمح والفأس، وهو الذي يمنح النصر للجنود. ولم يكن الإله پيرون الإله الرئيس بين آلهة السماء فقط، بل كان السلف الأول الذي خرج منه السلاڤ، وهو شفيع الأمراء، وكان قد شاع بين السلاڤ عرف تحريم النطق باسم الإله علانية، ولذلك أطلقوا على پيرون اسماء مختلفة منها اسم دوندول أو دودول أو دونير. وقد قدموا إليه الذبائح من الحيوانات مثل الحصان والثور والماعز، ويشير پروكوپيوس الى ذلك: "يقدمون له الثيران أضحية، ويقومون بالطقوس الدينية الاخرى..."؛ كما قدموا له نباتات مثل البلوط والتفاح البري، وأقاموا الصلوات له في ادغال شجرة البلوط أو تحت شجرات بعينها؛ كما قُدمت له الاضاحي البشرية، واحد الامثلة المسجلة والمهمة ان احد الڤايكنگ الذي كان يعيش في كييڤ تم اختياره من قبل الامير ڤلاديمير الاول ليكون اضحية الى پيرون بعد غارة عسكرية ناجحة!!، ذلك الڤايكنگ، وكان مسيحياً، رفض ان يكون نذراً لإله وثني، لكنه مع ذلك تم التضحية به كما امر ڤلاديمير. كما ان پيرون قد تم تكريمه بشكل خاص في اوقات ما قبل المسيحية في مهرجان الربيع حيث كانت العذارى الصغيرات يرقصن حتى الموت على شرفه، وهي ممارسة اصبحت فيما بعد مصدر إلهام لطقوس الربيع في ستاراڤينسكاري؛ وبمرور الوقت، تم تعديل الطقوس لتصبح رقصة احتفالية التي شاركت فيها جميع عذارى قرية ما أو مجموعة قبلية. اما معابده فقد شيدوها فوق الهضاب والمرتفعات، وكانوا يشعلون هناك نيراناً فالنار عُدت طعنة إله الرعد، وكان يوم الخميس مكرساً للإله پيرون، حتى انهم دعوه أحيانا باسم خميس. كما كان لـ پيرون اسماء أخرى، فقد دعوه پراڤي(Pravi) اي الحق، لأنه كان تجسيداً للعدالة العليا، وثمة في الخرافات والحكايات الروسية اسم پراڤدا(Pravda) اي الحقيقة، هذا وقد دُعي إله الرعد عن السلاڤيين الغربيين پروڤي(Provi). وكانت ترتبط به طقوس انزال المطر، اذ تقوم فتاة عذراء مغطاة بالزهور بالدوران في حلقة وتدعو ان ينزل عليها ندى پيرون؛ واسم پيرون السلوڤاكي هو پيروم(Perom) وتعني الكلمة حرفياً اللعنة. وفي عام

٩٨٨م، عندما اتخذ ڤلاديمير قراره السياسي بقبول المسيحية كدين رسمي لمملكته، امر بتدمير جميع الاصنام الوثنية، ومن ضمنها تمثال پيرون الذي كان واقفاً خارج قصره في كييڤ وكان يظهر وهو على حصان، وقد ضُرب بقضيب معدني، واخيراً أُلقي به في نهر دنيپر؛ ومن اجل انهاء عبادة هذا الإله والقضاء على الوثنية تشير السجلات الرسمية في نوڤغورود ان تمثال هذا الإله كان يُجلد سنوياً، لكن يبدو ان الاجراءات الكنسية لم تنجح إذ ان صفات هذا الإله سرعات ما اندمجت مع القديسين المسيحيين لاسيما ايليا كما سنلاحظ لاحقاً[٣٠]؛ ومن المعروف ان الشخصية المؤنثة للإله پيرون هي پيرپيرونا(Perperuna) وهي الإلهة العذراء التي تستدعي المطر[٣١]؛ كما ترتبط به أيضاً الإلهة زرويا(Zroya)، وهي إلهة الحرب العذراء[٣٢].

٤. **الإلهة موكوش(Mokoš):** عبد السلاڤ أيضاً الأم العظمى موكوش(Mokoš)، والدة كل شيء حي، وكانت هذه إلهة الخصب، ولذلك ارتبطت بالماء، لذا نجد السلاڤ يسجدون لها عند الينابيع، وكانوا يرمون إليها في الينابيع غزولاً، وقد عُدت موكوش حارسة الاعمال النسوية. تظهر هذه الإلهة في كثير من الاساطير السلاڤية تتجول في الليل على هيئة امرأة، وتزور المنازل، وتجز فروة الغنم بنفسها، ولهذا فإن الناس يضعون فروة الخروف ليلاً الى جانب الموقد استرضاءً للإلهة[٣٣].

٥. **الإله ڤيليس(Veles)/ڤولوس(Volos):** الإله الرئيس في العالم الاسفل، بيد اننا لا نستطيع ان نقول انه كان إله قوى الشر الظلامية، فوظائفه متنوعة جداً، ولم يكن رب عالم الاموات فقط، بل كان يملك قوة سحرية عدة منها الجبروت والسلطة، فهو أيضاً إله الحرب. وقد كان ڤيليس شفيع الحكماء والشعراء، كما عُد حامي عالم الحيوانات، فهو إله الوحوش الضارية والقطيع، وإله الثروة الفردية، ولذلك تخيلوه في صورة وحش أوبر، وليس عبثاً ان كان الكهنة الوثنيون يرتدون جلود الحيوانات وفراؤها الى الخارج. لقد كان الآلهة يتغيرون عند الشعوب كلها مع تغير نمط حياتها، فعندما تقدمت تربية الحيوانات عند السلاڤ، صار ڤيليس حارس الحيوانات المنزلية، ومع تقدم الزراعة بات إله العمل الزراعي والمحصول. وعرف السلاڤ تقليداً يتركون بموجبه جزءً من الارض الزراعية لا يحصدون سنابلها باعتبارها: "لحية للإله ڤيليس". وقد شاعت عبادة ڤيليس عند السلاڤ شيوعاً واسعاً، وهو ما انعكس في تسميات قراهم مثل: ڤيليسوڤو، وڤولوسوڤو، وڤولوتوڤو. ظل هذا الإله يُعبد في بعض مناطق روسيا حتى القرن التاسع عشر الميلادي، وقد اصبحت الجوانب الشيطانية في هذا الإله توصف بها الشياطين، اما الجوانب الجيدة فأصبحت جزءً من صفات القديس بليز(Saint Blaise) الذي عاش في القرن الثالث الميلادي، وهو القديس الذي يرعى الاطباء، ويسمى هذا القديس في روسيا ڤلاسي(Saint Vlasii)، وكان الناس يتضرعون إليه بصلوات تشبه الصلوات القديمة التي كانوا يتوجهون بها الى ڤولوس: "ايها القديس ڤولوس، هب لنا الحظ الطيب، بحيث تسمن ابقارنا وثيراننا"؛ وظلت بعض الطقوس التي: "يُعقص فيها شعر ڤولوس" قائمة حتى القرن التاسع عشر، حيث يعقد الفلاحون زمن الحصاد آخر المحصول على شكل عُقدة. وقد رسم الفنانون الروس لوحات يصورون فيها تقديم القرابين الى الإله ڤولوس، حيث يظهر الفلاحون وهم يذبحون حصاناً تحت اقدام تمثال ضخم لهذا الإله[٣٤]؛ وهنا علينا ان نتذكر جيداً ان اضحية الحصان كانت موجودة أيضاً في التقاليد الشامانية في سيبيريا كما سنرى لاحقاً.

٦. **الإله ايرسيڤورش(Erisvorsh):** إله للعواصف وقد عُبد بشكل رئيس لدى التشيك، وعُرف باسم ڤارپوليس(Varpulis) كذلك، وربما عبده الروس نظراً لكونه يظهر في التقاليد السلاڤية مرافقاً لـ پيرون[٣٥].

٧. **الإلهة ياغا(Yaga) أو بابا ياغا(Baba Yaga):** لم يكن ڤيليس وحده يحكم العالم الاسفل، بل كان هناك عدد غير قليل من آلهة الظلام اهمهم إلهة تدعى ياغا(Yaga) أو بابا ياغا(Baba Yaga)، اي الكابوس والمرض والخوف والغضب، واصبحت لاحقاً غولة من اكلة لحوم البشر في الأساطير الروسية، تخطف الأطفال وتقوم بطهيهم واكلهم، وهي تعيش عادة في كوخ يقف على قدمي دجاجة أو طير، يقع في اعماق الغابة، والحائط حول كوخها مصنوع من العظام البشرية، وتتحدث الاساطير عن بابا ياغا منها ان زوجة اب طلبت من الغولة ان تأكل ابنة زوجها، وحاولت الغولة ان تصل الى الفتاة، غير ان مشطاً سحرياً في طريقها انقذ الفتاة وجعل من المستحيل على بابا ياغا ان تصل إليها؛ وقد تجسد

كثير من سماتها في الشخصية الخرافية، ياغا الساحرة. وكانت ياغا بالأصل ربة الطبيعة البرية، ونصيرة الساحرات وحاميتهن، ولا تقيم ياغا في العالم الاسفل فقط بل تمد يد العون لقوى الشر والظلام، ولها ابنة تدعى ياغيشنا تختبئ دوماً في غياهب الغابات. وتبدو ياغا شنيعة المظهر، فهي بساق واحدة، وعين واحدة وبأنف طويل اشعر(٣٦).وما عدا تلك الآلهة هناك أبطال وقوى اسطورية آخرون في مملكة العالم الاسفل ومنهم: كاشيه الخالد، وعائلة الغورينتشيين التي يرأسها الثعبان غورنتش نفسه، والفارس غويرنيا حامل قوة الشر العضلية، والساحرة غورينيكا(٣٧).

٨. **الإلهتان لادا(Lada) وليليا(Lyale)**: عبد السلاف إلهتين أخريين أماً وابنتها، وكن الهتين للخصب، والرخاء، وازدهار الحياة في الربيع، وهما الإلهتان لادا(Lada) وليليا(Lyale)، وقد كانت وظائف هاتين عديدة، فالربة لادا إلهة الزواج، ومسؤولة عن نضج المحاصيل، والوفرة، وكانت ذبيحتها ديكاً؛ اما ليليا ابنة لادا فقد كانت حارسة الفتيات العزباوات، وكانت إلهة الخضار والربيع(٣٨). وفضلاً عن الآلهة فقد آمن السلاف بعفاريت الماء والحوريات، وشياطين الغابات، وكانوا يخافون العفاريت والشياطين، اما جني البيوت فقد عدوه حامياً للعائلة والمنزل(٣٩).

٩. **الإلهة مورينا(Morina)**: إلهة كانت تمكث في عالم الأموات بين وقت وآخر وأسمها مأخوذ من كلمة مور اي الموت، ولكنها كانت إلهة الخصب في الوقت نفسه(٤٠).

١٠. **الإله داجبوغ/داجدبوغ(Dazhbog) أو ياريلو**: ومعنى اسمه الإله الواهب، وهو الإله الرئيس بين الآلهة الشمسية، فهو إله حرارة الشمس، وعد إلهاً للضوء، والمسؤول عن نضج المحصول ومعنى اسمه: إله الحر، ودعوه أيضاً: الملك-الشمس، أو ابن سڤاروغ(Svarog)، وشقيق إله النار. وتقول الأسطورة السلاڤية ان الإله سڤاروغ تعب من حكم الكون، فتنازل عنه لأبنيه: إله الشمس، وإله النار، وكان إله الشمس داجبوغ يعيش في الشرق في أرض الصيف الأزلية، في قصر ذهبي، يخرج منه كل نهار في عربة تجرها جياد بيضاء تنفث لهباً، وتقول بعض الأساطير ان الجياد ثلاثة، وقيل اثنى عشر حصاناً، اما العربة فهي من الذهب المرصع بالماس، وللجياد البيضاء عرف ذهبي. ويعتقد الصربيون ان إله الشمس ملك شاب يعيش مع فتاتين جميلتين واحدة منهما اورورا الفجر، والثانية اورورا المساء، وهما شقيقتان تصحبهما نجمتان هما نجمة الصباح، ونجمة المساء، ويقول الروس عن اصلهم انهم احفاد داجبوغ إله الشمس، وكان رمز هذا الإله هو الذهب والفضة. وقد تعايش هذا الإله زمناً طويلاً مع المسيحية جراء الازدواجية الدينية الذي توافق مع عصر التبعثر السياسي في روسيا خلال القرنان الحادي عشر والثاني عشر الميلادي. ومما يجدر ذكره ان الديانتين المسيحية وعبادة داجبوغ لم تكونا في حالة صراع، بل يصح القول انهما كملت احداهما الأخرى، فالأميرات في روسيا القديمة كن يحملن على سبيل المثال تيجاناً طقوسية في وسطها اما صورة يسوع المسيح أو صورة داجبوغ، ومع الوقت تحول داجبوغ الى دايبوغ وهي عبارة سلاڤية تعني: فليعطينا الإله، وهو أمر لا يخالف المسيحية؛ من جانب آخر عدت التقاليد السلاڤية الملك-الشمس الحاكم الأول للبلاد، والمشرع الاول الذي يرتبط به التقويم السنوي، وقد صوروا الملك-الشمس في مركبة ذهبية تجرها بدل الخيل كلاب لها اجنحة طيور، وكان الإله يقف في تلك المركبة حاملاً بيديه صولجانين رسمت عليهما اوراق السرخس(٤١).

١١. **الإله خوروس(Khoros)**: كان عند السلاف إله شمسي آخر، وهو الإله خوروس(معنى اسمه الحرفي: الشمس)، وربما كان ابناً للإلهين پيرون وموكوش، واذا كان داجبوغ قد مثّل دفء الشمس وضوئها، فإن خوروس كان إله الشمس مباشرة، فقد رأى القدماء وليس السلاف وحدهم ان النور كان اولاً، والشمس نفسها ثانياً، وقالوا: "ليست الشمس سوى تجسيداً للنور". ولم يكن لـ خوروس وجه بشري، فهو كقرص الشمس الذي يتحرك في السماء، وكانت الزلابيات الذهبية المستديرة الشكل التي يحملها السلاف في الصوم الكبير ترمز الى شموس صغيرة، كما شاعت عادة دحرجة عجلات ملتهبة ترمز للشمس(٤٢).

١٢. **الإله ستريبوغ (Stribog)**: الذي عُد الإله الأب، وهو إله الريح في الأساطير السلاڤية، وان كانت الرياح في بعض الملاحم الروسية تسمى حفيدة ستريبوغ(٤٣).

١٣. **الإله سروتشك(Svarozhich)**: اي السماوي وعُد إلهاً للسماء والنار، وكان ابن سڤاروغ، وشقيق داجبوغ، وقد علم البشر تصنيع الحديد، وأرسل لهم الملقط، لذا كان سڤاربوغ مرتبطاً بالنار، التي دعاها السلاف على اسمه سڤاروغيتش. وهذا الإله يصور في الآثار الفنية وهو يضع خوذة على رأسه، وعلى صدره صورة لرأس ثور اسود، ويمسك في يده سيفاً بحدين، وكانت تقدم إليه القرابين البشرية، وقيل ان احد الأساقفة تم اسره عام ١٠٦٦م، وقدمت رأسه الى هذا الإله(٤٤).

١٤. **الكلب المجنح سيمورغ(Simorg)**: تابعاً لإله الشمس خوروس وداجبوغ، وقد عُد إله الجذور، والبذور، وحارس البذار والزرع، ولكن هذا الإله تحول مع مرور الزمن تحولاً كبيراً، فقد كان في الأول إلهاً للنار، ثم تخيلوه في صورة انسان كما في صورة صقر، ولم يكتسب سمات الكلب المجنح إلا في زمن متقدم(٤٥).

آمن السلاف بوجود حياة أخرى بعد الموت، لذلك كانوا يضعون مع الميت في القبر إناء فيه عصيدة، ويتركون له سلاحه وادواته المنزلية، وكانوا يضعون مع الاطفال الالعاب أحياناً(٤٦).

رغم قلة الاساطير الاصلية التي وصلتنا من روسيا القديمة ؛ فإن التقاليد الشفاهية تقدم الكثير من التصورات عن تلك الاساطير، الدلائل التاريخية ان الادب الشعبي الشفاهي ربما قد ظهر خلال حقبة سحيقة من تاريخ روسيا القديم، فقد الف الناس الاساطير حول اصل الارض والشمس والانسان والوحوش والطيور، وحفظوا غيباً ما روى اسلافهم وابطالهم، وتُعد ملحمة كاليڤالا اقدم اثر لفولكلور شعوب روسيا اي اسلاف الكاريليين، اذ يتصارع ابطال البلاد الاسطوريين في كاليڤالا مع الساحرة العجوز الشريرة لأنها سرقت من الناس الطاحونة التي تطحن بنفسها وقد صنعها الحداد ايلمارينين، وتصف اغاني كاليڤالا مشاهد القنص وصيد السمك والزراعة البدائية والرعي والحرف في عصر المجتمع البدائي(٤٧). لكن هناك اشارات الى معركة اسطورية يشارك فيها الآلهة كلهم فيها مع الإله الاكبر پيرون ضد الثعبان، إذ كان پيرون يخوض صراعاً إما ضد الثعبان، أو ضد الملك الثعباني، وقد وصفت الاساطير مختلف اشكال هذا الصراع، اذ نعرف ان الثعبان يخطف قطيع إله الرعد، أو زوجته، أو ابناء الشمس، فينازل پيرون الثعبان مطلقاً سهامه-صواعقه عليه؛ لكن هذا يحاول ان يتخفى في الاشجار، وخلف الصخور، أو حتى في اجساد البشر والحيوانات، بيد ان صواعق پيرون تدركه وتقتله، فيهطل المطر من جراء ذلك بشكل غزير. ولكن الصراع لا ينتهي ومن الربيع حتى الخريف يطارد پيرون اعداءه ويصرعهم. كما تتناول الاساطير والتقاليد الشعبية السلاڤية صراع الابطال مع الثعبان مثال ذلك نجد ان البطل دوبرينيا نيكيتيتش يهزم الثعبان غورينيتش؛ والبطل اليوشا بويوفيتش الذي يهزم الثعبان توغارين؛ وايليا موروموتس الذي يهزم البلبل قاطع الطريق، أو الثعبان-الصقر ذا القرنين الذي يحط على شجرة البلوط في الغابة الكثيفة(٤٨).وخلال العصور الوسطى ظهرت ملاحم البطولة لدى الشعب الروسي لاسيما في كييڤ، وتشير ملاحم البطولة الى الابطال الاسطوريين وقواهم الخارقة وهي بلا شك تعكس مفاهيم قديمة تحاكي العصور الغابرة، وفي الوقت الذي كان فيه ابطال ملاحم البطولة في اوروپا خلال العصور الوسطى هم الفرسان الباحثون عن المغامرات والمنتصرون في مباريات الفروسية؛ كان ابطال الملاحم الروسية العظيمة هم الابطال الجبابرة من امثال ايليا موروميتس نصير الفلاحين الفقراء؛ ودوبرينيا نيكيتيتش واليوشا بوبوڤيتش الذين يقفون عند الحدود يحمون الاراضي الروسية من الاعداء؛ واصبح بطل الملاحم ميكولا سيليانينوڤيتش، وهو الفلاح البسيط، مجسداً لجبروت الشعب وقواه التي لا تنفذ، وتشير الاسطورة المرتبطة به انه لم يستطع ٣٠ من الشبان الشجعان والبطل الجبار ڤولغا ڤسيسلاڤييڤيتش الشهير نفسه ان يرفع محراث ميكولا من الارض، بينما هو رفعه من شق الارض المحروثة بيد واحدة بكل سهولة. ويحتوي اقدم سجل روسي للحوادث التاريخية ويدعى: قصة السنين الغابرة على اغانٍ تاريخية، وروايات شعبية ليست قليلة، منها قصة انتصارات وموت الامير اولغ؛ ونلاحظ ان ابطال حكايات السجلات هم اناس بسطاء مثل ابن حرفي انتصر في مصارعة بطل جبار متباه من البتشيتيغيين، أو عجوز علم سكان نوڤغورود كيف ينقذون مدينتهم من العدو(٤٩). وهناك ايضاً الملحمة الخالدة: كلمة عن كتيبة ايغور، التي تتحدث عن الحملة الفاشلة التي قادها الامير ايغور امير نوڤغورود سيڤيرسكي ضد البولوڤتسيين عام ١١٨٥م. ان عمق افكار الملحمة وروعة صور ابطالها

وبلاغة لغتها تثير اعجاب القارئ الى الآن، فالمؤلف يشعر بالمرارة على الوطن الذي تمزقه منازعات الامراء ويخربه البولوفتسيون، وكان المؤلف يدافع بحرارة عن وحدة الاراضي الروسية ويتغنى بالعمل السلمي الذي يؤديه الفلاح. كما عكست الملاحم الشعبية التي أُلفت عن ڤاسيلي بوسلايڤ والضيف الغني سادكو حياة نوڤغورود ذات الطابع الاصيل في القرون الوسطى، فالبطل الشعبي ڤاسكا(اسم تصغير لـ ڤاسيلي) بوسلايڤ يتميز بالقوة والشجاعة وسماحة الخلق التي ليس لها مثيل، وهو في الوقت ذاته لا يؤمن بالأحلام ولا بالفأل السيئ. اما الموسيقي سادكو الضارب على آلة الغوسلي فقد أصبح غنياً بعد ان حصل على هبة من ملك البحار بسبب عزفه الرائع، وتصور ملحمة سادكو الحياة المدنية في نوڤغورود القديمة بصورة رائعة، وتحتوي على اساطير النوڤغورديين البحرية(٥٠).

كانت الديانة الوثنية لدى السلاڤ بشكل عام ذات صلة بحياتهم الزراعية ويتضح ذلك في احتفالاتهم الدينية، ومن اعيادهم المهمة عيد كوليادا اي عيد الفأل الذي يحتفلون به اثناء الانقلاب الشتوي في ٢١-٢٢ كانون الاول؛ وهناك أيضاً عيد كوبالا أو عيد السباحة الذي يتم الاحتفال به اثناء الانقلاب الصيفي في ٢١-٢٢ حزيران، وهو عيد يرتبط بإله الشمس والخصب، وفي البدء كان السلاڤ يضحون في عيد كوبالا بفتاة يغرقونها في النهر، ولاحقاً تم استبدال الفتاة بدمية اسموها كوبالا. وكان السلاڤ اثناء الاحتفال بهذين العيدين يشعلون المشاعل الكبيرة ويقومون بالرقصات الجماعية ويقرأون الفأل لمعرفة المستقبل(٥١). ومن الاعياد الاخرى عيد وداع الشتاء هو عيد سلاڤي قديم يستمر عدة ايام يودعون من خلاله السلاڤ الشتاء ويحتفلون بقدوم الربيع، والانتقال الى اعمال الزراعة الربيعية، واثناء هذا العيد كانت تقام الطقوس والولائم حيث كان السلاڤ يحرقون صورة الشتاء المصنوعة من القش، ويخبزون رغيف الرقاق للتضحية، ويشعلون المشاعل، ويضعون طعام العيد على قبور الاجداد(٥٢). بعد اعتناق روسيا المسيحية في القرن العاشر الميلادي بدأ القساوسة يلاحقون بقسوة الطقوس والاعياد الوثنية، لكنهم لم يستطيعوا القضاء على بعضها ودخلت ضمن الطقوس المسيحية كما سنرى(٥٣). كما مارس السلاڤ العرافة ويذكر المؤرخ البيزنطي پروكوپيوس انهم: "يقومون بالعرافة بمساعدة الاضاحي..."(٥٤).

- **المسيحية والتطور التاريخي الكنيسة الروسية.**

اولاً: التطور التاريخي للمسيحية من دخولها لروسيا حتى القرن السادس عشر.

شهدت الديانة المسيحية في روسيا تطورات تاريخية مهمة، فقد اعتنقت روسيا المسيحية حوالي عام ٩٨٨م في عهد امير كييڤ ڤلاديمير سڤياتوسلاڤيتش الملقب الكبير(٩٨٠-١٠١٥م)، ولاحقاً عُرف باسم القديس ڤلاديمير، وتشير الروايات الروسية ان الأمير ڤلاديمير رأى انه لم يكن من بد من ان يختار ديناً آخر غير الدين الوثني الذي يدين به، ولم يقف في سبيل اعتناقه هو ورعاياه الدين الإسلامي ألا الختان وتحريم الخمر؛ وصرح ان الروس لا يعدلون عنه، لأنه كان، اي الخمر، من مباهج الحياة عندهم. كذلك اخفق اليهود، كما تؤكد الروايات الروسية ذاتها، الذين جاءوا من بلاد الخزر عن طريق بحر قزوين، من اقناع الأمير الروسي باعتناق ديانتهم، فبعد ان اصغى ڤلاديمير الى حججهم، سألهم اين بلدهم؟ فأجابوا: "اورشليم، ولكن الله شتت شملنا في كافة انحاء العالم غضباً منه علينا"؛ فصاح: "اذاً فقد بؤتم بلعنة من الله، ومع ذلك فأنتم تريدون ان تعلموا غيركم، اذهبوا، فنحن لا نريد مثلكم ألا يكون لنا وطن". بالمقابل فقد تأثر الأمير ڤلاديمير جداً بما رواه إليه قسيس اغريقي، حين عرض عليه صورة شاملة لتعاليم المسيحية، بعد ان نقد الديانات الأخرى نقداً موجزاً، بادئاً بخلق العالم وقصة فناء الإنسان، وانتهى بالمجامع السبع المسكونية(٥٥)، التي اعترفت بها الكنيسة الإغريقية الارثوذكسية؛ ثم أوضح للملك صورة ليوم القيامة، ودخول الصالحين الجنة، وقذف الكفار في الجحيم، ووعده بميراث الملكوت اذا عُمد. لكن ڤلاديمير لم يكن يميل الى الاندفاع في اختيار دين يحل محل الوثنية، لذا جمع زعماء الروس في دولته، ولما اخبرهم بما سمعه من ممثلي الديانات المختلفة، طلب منهم نصيحتهم فأجابوا: "أيها الأمير، إن كل انسان يمتدح ديانته، فإذا اردت ان تختار احسنها، فأبعث برجال عقلاء الى البلاد المختلفة ليكشفوا لك أية امة من الأمم تعظم الله بالطريقة المُثلى التي تليق بمقامه الأسمى". لذلك اختار الأمير لهذا الغرض عشرة رجال اشتهروا بالحكمة وسداد الرأي، فوجد هؤلاء السفراء بين البلغار المسلمين اماكن حقيرة المظهر، وصلوات تبعث على الكآبة، ووجوهاً واجمة؛ ووجدوا بين الألمان الكاثوليك حفلات دينية خالية من

الأبهة والجلال؛ وأخيراً بلغوا القسطنطينية، فقال الإمبراطور البيزنطي لاتباعه: "دعهم يشاهدوا جلال إلهنا"، ثم أخذوا الى كنيسة أيا صوفيا، حيث كان البطريق، وهو مرتدٍ ملابسه الرسمية، يحتفل بالقداس، وان فخامة البناء، وملابس القسيسين الكهنوتية الجميلة، وزخارف المذابح، ورائحة البخور الزكية، وسكون الناس المنبعث عن الاحترام والخضوع، والاحتفال الديني السحري الذي يتجلى في هيبة وخشوع، كل ذلك ملأ قلب الروس بالدهشة؛ وقد بدا لهم ان هذه الكنيسة لابد ان تكون مقام العلي الأسمى، وان الله اظهر للبشر مجده في ذلك المكان. ولما وصل السفراء الى كييف، وصفوا للأمير ما شاهدوه، فتكلموا باحتقار عن الديانة الإسلامية، ولم يكن لديهم ما يقولونه إلا القليل عن الديانة الرومانية الكاثوليكية؛ ولكنهم امتدحوا الكنيسة الإغريقية في حماسة وقالوا له: "ان كل رجل ذاق شراب حلو، سوف يعالج من الآن، اي شراب مر المذاق، ومن اجل هذا، لا نرغب بعد ان وقفنا على عقيدة الكنيسة الإغريقية، في اي ديانة أخرى". ثم استشار ڤلاديمير زعماء الروس مرة أخرى، فقالوا له: "لو لم تكن الديانة الإغريقية أحسن الديانات، لما اعتنقتها ابداً جدتك اولغا، أحكم البشر". وبذلك لم يعد ڤلاديمير متردداً، وفي عام ٩٨٨م اعلن هذا الأمير المسيحية ديناً رسمياً لمملكته، وفي اليوم التالي لتعميده على يد اسقف مدينة خيرسون الاغريقية نبذ الأوثان التي عبدها اجداده، واصدر مرسوماً يقضي بأن يُذعن الروس كافة، سادة وعبيداً، اغنياءً وفقراءً، للتعميد وفق طقوس الديانة المسيحية(٥٦). بلا شك تنطوي هذه الرواية عن مبالغات كُتبت لاحقاً بعد فترة طويلة من اعتناق ڤلاديمير للديانة المسيحية، فمن جانب ان الإشادة بالأرثوذكسية تكشف عن تحيز واضح من قبل الرواية الروسية للكنيسة الارثوذكسية وتفضيلها ليس فقط على بقية الديانات المناظرة لها كالديانتين اليهودية والاسلامية، بل حتى على المسيحية الكاثوليكية؛ ومن جانب اخر يبدو ان ادخال عنصر مسيحي واضح داخل الرواية سابق لاعتناق الامير الروسي للمسيحية الارثوذكسية وهي جدته اولغا يشير الى محاولة كاتبها حسم قرار ڤلاديمير لصالح المسيحية، اذ لا يوجد اي دليل على ان اولغا كانت قد اعتنقت المسيحية، وعلينا ان نذكر جيداً كيف ان ڤلاديمير الوثني كان قد قدم سابقاً مسيحياً من الڤايكنگ كأضحية بشرية قبل اعتناقه المسيحية، ولم يراعِ ان تكون جدته مسيحية!!! ومع ذلك عندما اراد ان يعتنق هذه الديانة فإن مستشاريه ضربوا مثالاً بها وهي احكم البشر كما ادعوا، فلما لم يراعيها عندما قدم مسيحياً قبل ذلك قرباناً؟ بلا شك هذه الرواية لا تقدم اي حقيقة تاريخية بقدر ما تقدم صياغة متأخرة لحدث تاريخي تحاول ان تمجد بالقديس ڤلاديمير ودوره الحاسم في اعتناق المسيحية. ولكن علينا ان ندرك جيداً ان انتشار المسيحية في روسيا كان قد بدأ من قبل ذلك بزمن طويل؛ وقد اعتنق الأمير ڤلاديمير الايمان المسيحي على يد قساوسة بيزنطة(٥٧)؛ ومن اجل فهم السبب الذي دفع الامير ڤلاديمير الى هذا التوجه علينا ان نقدم تصور حول كل من الديانتين الوثنية والمسيحية وعلاقتهما بالسلطة:

١. ان الديانة الوثنية كانت ديانة تعدد الآلهة، ففضلا عن الآلهة الرئيسية كان السلاڤ يعبدون عدداً كبيراً من آلهة القبائل الصغار، ولم يكن لديهم تعاليم دينية منسجمة موحدة، وكانت الطقوس والاعياد الوثنية تحمل طابع العادات الشعبية القديمة، كل ذلك اصطدم مع سلطة الامير ڤلاديمير باعتبار الديانة الوثنية تمثل بقايا النظام القبلي.
٢. كانت الديانة المسيحية هي ديانة الإله الواحد، وقد وجدت في بيزنطة لمئات السنين قبل ذلك وشكلت منظمة كنسية قوية، وكانت التعاليم الدينية المسيحية تستجيب لمصالح الامير والاقطاعيين بصورة افضل، إذ اكدت الكنيسة في العصور الوسطى ان الامير يحكم الشعب بأمر من الله نفسه، وكان القساوسة يوحون للناس البسطاء: "ان كل عبد يجب ان يطيع سيده"؛ كما كانت الكنيسة تهدد العصاة بالعذاب الدائم في الجحيم، اما المطيعون فكانت تعدهم بالنعيم الدائم في الجنة؛ كما اشارت الكنيسة ان الانتفاض على الامير والسادة خطيئة مميتة، اما اضطهاد الاقطاعيين للشعب فهو عمل قانوني عادل(٥٨).

بعد اعتناق المسيحية بدأ الامراء الروس ورجال الكنيسة بإنشاء الهياكل الفخمة والاديرة الغنية في كل مكان، ولعل كنيسة العُشر هي اقدم بناء حجري في كييف تعود للقرن العاشر الميلادي؛ وقد الحق الامراء الروس بالكنائس المعمدات وهي منشآت خاصة لإرغام الوثنيين على اعتناق المسيحية بالقوة، كما اخذ رجال الكنيسة ينشؤون هياكلهم في اماكن المعابد الوثنية التي هدموها. ولكن يبدو ان المسيحية

واجهت في بدايتها مقاومة شديدة من قبل الروس، ففي كثير من مدن واراضي روسيا طرد ابناء الشعب الاساقفة المبعوثين من قبل الامير وقاموا بانتفاضات مستمرة، وتشير القصة الروسية الشعبية البيلينا، التي تدور حول شخصية البطل الروسي ايليا موروميتس، السخط على سياسة الامير ڤلاديمير الكنسية؛ فالبطل موروميتس الذي اغاضه الامير ڤلاديمير وزع ثروات الكنيسة على فقراء كييف، واقام وليمة تقدير لا على شرف الامراء الاعيان بل للفلاحين الفقراء: "الذين ينتعلون الاحذية من قشور الشجر"[٥٩].

لكن من جانب آخر كان للمسيحية هناك ايجابياتها، فقد اسهم دخول المسيحية في روسيا الى تطوير الثقافة والتعليم، فعقب تحول روسيا الى المسيحية اصبحت الكنيسة الاداة الرئيسة لنقل الحضارة البيزنطية الى روسيا، ولم تكن تلعب دوراً طليعياً في الميدان الديني فحسب، بل في ميادين الآداب والفنون والموسيقى ايضاً، وسرعان ما دخلت القيم المسيحية في صراع مع القيم الوثنية المتخلفة وبدأت تُحرز تفوقاً مشهوداً في هذا الصراع، اذ خمدت الوثنية من دون ادنى مقاومة، اذ اصبح هناك امراء يقرأون الكتب ويجمعونها ويأمرون بترجمة الكتب الكنسية الى اللغة الروسية، وانتشر التعليم وتقلصت الامية، وأنشأت المدارس في الكنائس والاسقفيات؛ كما ساعدت المسيحية في استيعاب الانجازات الحضارية البيزنطية لاسيما في مجال العمارة والرسم والحرف الفنية حيث ظهرت رسوم جدارية رسمها، حسب النموذج البيزنطي، رسامون روس؛ وبعبارة اخرى: لم تكن روسيا فيما يتعلق بالتعليم والثقافة ادنى من الدول السلاڤية الغربية ومن جيرانها الاقربين من السلاڤ. اما العاصمة كييف التي كانت اكبر المدن الروسية آنذاك فقد عُدت واحدة من تُحف العصور الوسطى، اذ احصى فيها احد الذين زاروها آنذاك ما لا يقل عن ٤٠٠ كنيسة، وكانت لها اسوار حصينة، وفيها اسواق عظيمة. كما تأثرت روسيا نتيجة المسيحية بمجموعات قوانين الاباطرة البيزنطيين التي اثرت على القوانين الاقطاعية الروسية، كما ان المسيحية عززت مكانة روسيا الدولية وتوثقت صلاتها مع الدول والشعوب السلاڤية في اوروبا، فقد يرتادها التجار من جميع الاقطار التي كانت لدولة كييف علاقاتها تجارية معها مثل: المانيا، وبوهيميا، وهنغاريا، وبولندا والاقطار الاسكندناڤية وبلدان الشرق، وقد اثارت اعجاب الغربيين لدرجة ان اسقف بريمن عدها: "منافساً للقسطنطينية نفسها"، وان احد كتاب الحوليات الالمان وصفها بأنها اصفى جوهرة في كل العالم اليوناني[٦٠].

ومع ذلك استمرت الافكار الوثنية في المناطق الريفية بارزة من خلال المعتقدات الشعبية بل مورست حتى الشعائر الوثنية لزمن طويل، ولعل وجود معظم الاديرة والصوامع في المدن أو بالقرب منها خلال عصر كييف يُعطي دلالة مهمة على ذلك، وكان دير كاڤس في كييف اكثر الاديرة شهرة واهم المراكز الروحية الروسية في ذلك العهد، وطبقاً للأب ثيودوسيوس وهو من رهبان دير كاڤس فإن اسس الرهبنة هي الصلاة والتواضع والعمل والمحبة والاحسان، وتنفيذاً لهذه المبادئ، ارتدى الاب نفسه ملابس رثة، ولم يتوان في القيام بأي عمل يدوي، وربما كانت النتيجة الاكثر اهمية لدخول المسيحية الى روسيا القديمة هي الشعور الجديد بالمسؤولية الاخلاقية التي نادت بها اعمال الفرد وحتى افكاره، وقد عزز هذا الاتجاه فكرة الحياة الآخرة ويوم القيامة. وفي بادئ الأمر لم تستطع سوى فئة قليلة هي التي استطاعت ادراك رمزية الطقوس الكنسية ومعانيها، ومع ذلك كان هناك العديد من عناصر العبادة التي راقت بدرجة كبيرة أو صغيرة لأغلبية جموع الناس كقراءة العهدين القديم والجديد، وقراءة الترانيم والصلوات، وكان رسم الايقونات والصور الجدارية، والمناظر الشارحة للكتاب المقدس، قد افاد في توضيح ما يُقرأ، وزودت المواعظ بشرح اضافي[٦١].

يجب ان يكون واضحاً في الأذهان ان طقوس الصلاة لم تكن تؤدى باللاتينية أو بالإغريقية ولكن بالسلاڤونية الكنسية، وقد ادخلت السلاڤية في الطقوس، وترجم العهد الجديد عن الاغريقية على يد المبشرين البيزنطيين هما الاخوان من سالونيكي قسطنطين كيريل(٨٢٦-٨٦٩م) وميثوديوس(٨١٥-٨٨٥م) اللذان قدما الى بلاد السلاڤ كرسولين اغريقيين للتبشير بالديانة المسيحية الذين اصبحا يُعرفان برسولي السلاڤ، واثناء بعثتهما الى موراڤيا الكبرى من قبل الامبراطور الروماني الشرقي ميخائيل الثالث(٨٤٢-٨٦٧م)عام ٨٦٣م ابتكرا لغة كنسية من لغة محكية خاصة بالسلاڤ للتبشير بالإنجيل المسيحي. وقد نشأت هذه اللغة، المعروفة اليوم باللغة السلاڤونية الكنسية القديمة، على أساس لهجة تكلم

بها السكان السلاف من سالونيكي، وطن هذين الاخوين، لكنها تأثرت باللغة الاغريقية وصيغت على غرارها الالفاظ، والتعابير، وبناء الجملة، والاسلوب. وحتى نهاية الالف الاول الميلادي كانت الاختلافات اللغوية بين اقوام السلاف عموماً بسيطة جداً، وغدت السلافونية الكنسية القديمة لغة ادبية مشتركة لجميع الاقوام السلافية الارثوذكسية. وبعد وفاة ميثوديوس وقعت الكنيسة المورافية تحت الهيمنة الفرانكونية(Franconian Language)(اللغة الجرمانية القديمة)[٦٢]، وأبعد مؤيدوه وانصاره، لكن تمت حماية تقاليد كيريل-ميثوديوس من قبل بوريس البلغاري وابنه سيمون الذي ما زال الناس يذكرون عهده(٨٩٣-٩٢٧م) بوصفه عصراً ذهبياً للأدب البلغاري. وقد برزت اوهريد وبريسلاف مركزين جديدين للغة السلافونية الكنسية القديمة، اذ تم الحفاظ هنا على ارث معلمي السلافيين، كما تمت ترجمة سلسلة واسعة من الكتابات البيزنطية، وكتابات آباء الكنيسة عن اللغة الاغريقية؛ ومن بلغاريا انتشر مجموع الادب الكنسي القديم الى امارة كييف الروسية؛ وعندما قرر الامير ڤلاديمير في عام ٩٨٨ اعتناق المسيحية سرعان ما انشأ السلاف الشرقيون ادبهم الخاص على أساس ارث كيريل-ميثوديوس والإرث البلغاري. ولم تكن النصوص الاغريقية المترجمة الى السلافونية الكنسية القديمة من قبل الاخوين ومريديهما مختارة بطريقة عشوائية، بل كانت مجموعة كتابات متسلسلة من حيث الاهمية الدينية، وعلى رأسها تلك المطلوبة من اجل العبادة والخدمة الكنسية وهي:

١. **ليتورغيكون(Leitourgikon) وهرولوغيون(Horologion):** ويتضمنان الصلوات والتراتيم والتسابيح الثابتة على مدار السنة.
٢. **تريودي(Triodi)** الصوم : وهي النصوص الخاصة بالتلاوة اثناء فترة الصوم الممتدة خمسون يوماً.
٣. **تريودي الفصح:** النصوص الخاصة بالتلاوة اثناء فترة ما بعد الفصح وتمتد خمسون يوماً.
٤. **المعزّي(Oktoechos):** وتتضمن صلوات وترانيم تؤدى في اوقات متغيرة تبعاً للتقويم الكنسي.
٥. **نصوص مختلفة:** وهي نصوص للتلاوة من الاناجيل واعمال الرسل ورسائل القدسين ومن العهد القديم.
٦. **المزامير(Psalms).**
٧. **السنكسار(Synaxarion):** المتضمن اخبار القديسين ومواعظهم[٦٣].

ان المؤسس الحقيقي للكنيسة الروسية، فهو الأمير ياروسلاف الحكيم(١٠١٩-١٠٥٤م) الذي خلف الأمير ڤلاديمير، اذ كان الميتروپوليتان(المطران)[٦٤] الأول في روسيا هو الاغريقي ثيوفيميت الذي قدم من بيزنطة، فالمتروپوليا(المطرانية) الكييڤية كانت تابعة لبطريركية بيزنطة، وكان بطاركة هذه الاخيرة هم الذين يعينون ميتروپوليت روسيا، ولكن الأمراء الروس ما لبثوا ان اخذوا يعينون الميتروپوليتان بأنفسهم؛ فقد اصبحت الكنيسة الروسية اثناء حكم ياروسلاف اكثر استقلالاً عن بيزنطة، وسرعان ما عين هذا الامير في رئاسة متروپوليا كييڤ واسقفية نوڤغورود القساوسة الروس بدل الاغريق، وكان ياروسلاف يهدف الى تعزيز هيبة رجال الكنيسة فأنشأ الكنائس والاديرة، وفي فترة حكمه أُنشئت كاتدرائية[٦٥] القديسة صوفيا الشهيرة في كييڤ عام ١٠٥١، وقد كانت هذه البناية الحجرية الهائلة محاطة بصفين من الايوانات المكشوفة، وفي داخل الكاتدرائية هناك شرفات للأمير وعائلته، وترتفع فوق الكاتدرائية ثلاث عشرة قبة، وكانت قصور الامراء وقلعة ميتروپوليت كييڤ تحيط بالكاتدرائية؛ وكانت تزيين الكاتدرائية نقوش ذات محتوى دنيوي مثل مشاهد الصيد والعاب المهرجين وصور افراد عائلة الامير، وكانت ارضية الكاتدرائية عبارة عن سجادة رائعة من الفسيفساء[٦٦]. كما اخذ الامراء الروس لاحقاً بأنشاء مؤسسات لتعليم رجال الدين، واخذوا على عاتقهم مهمة تمويل الكرسي الاسقفي[٦٧]. وهكذا، مع الوقت، اخذ رجال الدين الروس يتكاثرون في الكادر الكهنوتي للبلاد، كما تزايدت اعداد الاديرة في البلاد، وكانت هذه مصدراً للكوادر الدينية والاساقفة، فثمة كثير من ابناء فئات المجتمع العليا دخلت الاديرة. من جانب اخر كانت الحالة الاقتصادية للكنيسة في تحسن دائم، فقد كان عُشر دخل سكان روسيا كلها يذهب الى الكنيسة، فضلاً عن تقدمات الوجهاء، والاقطاعيين[٦٨]. وخلال عصر ياروسلاف ظهر قائد مهم للكنيسة الروسية، هو هيلاريون، وهو اول ميتروپوليتان من اصل روسي تولى مهامه عام ١٠٥١، وكان عالماً متعمقاً في الشؤون الكنسية الاغريقية، وعُرف بحكمته العميقة، وقوة بلاغته، ويُستدل عليهما من خلال احدى مواعظه التي ما تزال باقية، والتي تحدث فيها عن اهمية تحول الروس

الى المسيحية. وقد عُرف عن هيلاريون حتى قبل ان يصبح ميتروپوليتان عن صرامة حياته الدينية، وفي مقتبل حياته، حفر لنفسه كهفاً في احد الجبال قرب كييڤ من اجل التأمل والتفكير الروحي، لهذا ربما يُعد مؤسساً للأديرة الكهفية التي ازدهرت في عهد ابناء ياروسلاڤ، واصبحت مؤسسة رائدة في الحياة الدينية الروسية في عصر امارة كييڤ[٦٩]. كان العمل الرائد واحد الاعمال الادبية المبكرة التي تُنسب الى هيلاريون هو: "خطبة حول الشريعة والنعمة"، والتي يبدأها هذا الميتروپوليتان بأنها(اي الخطبة): "ليست للجهلاء، بل لأولئك الذين يتذوقون حلاوة الكتب"، ويُستدل من تلك الخطبة ان بناءها النثري مضبوط، اما فكرتها الرئيسة فهي انتصار نعمة المسيح على شريعة موسى[٧٠]. وقد جرى تطوير هذه الفكرة في القسم الأول من الخطبة عبر سلسلة من المقابلات الرمزية التي نُظر من خلالها الى الحوادث والشخصيات الواردة في العهد القديم على انها اشارات نبوئية وصور للحقية المفصح عنها في الاناجيل بدءً من المقابلة بين هاجر وسارة وفقاً لما جاء في رسالة غلاطية للقديس پولس. ويمثل القسم المركزي للخطبة انتصار النعمة الإلهية عبر المقابلات الخاصة بتأويل شخصة واعمال المسيح، وعددها سبعة عشرة، خمسة منها تتطرق لولادة المسيح، وخمسة اخرى لحياته العامة والسبعة الباقية لآلامه؛ اما القسم الثالث والأخير من الخطبة، يمثل المديح الختامي للأمير ڤلاديمير، ويمجد دخول روسيا في المسيحية. ويتضح من الخطبة المؤثرات البيزنطية عن طريق النظر الى العهد القديم كسلسلة من التجلي أو التمثيل السابق للمسيح، ولخلاص الامم اللاحقة، وبلوغ الارض الموعودة اي ملكوت السماء، لكن ليس عن طريق شريعة موسى بل بنعمة المسيح؛ وان التاريخ بموجب رؤية هيلاريون، لا يسعى لاكتشاف الصلات السببية بين الاحداث والشخصيات، بل ليفسرها لكونها صور لنموذج بدئي سرمدي صممه الله قبل خلق العالم؛ مفهوم التاريخ هنا يدعم ايضاً فكرة تمثيل ڤلاديمير العظيم بكونه مقتدياً بقسطنطين العظيم؛ فما حققه هذا الاخير بين اوساط الاغريق والرومان في اخضاع امبراطوريته لله، حققه الاول في اوساط الشعب الروسي، لذا فإن مجدهما السماوي واحد. فضلاً عن اعمال هيلاريون هناك ايضاً كتابات اخرى تعود للقرن الثاني عشر مثل مؤلف: "خطاب الى اخ ناسك" المجهول الاسم؛ ومواعظ الاب ڤيودسي رئيس دير مغارة كييڤ؛ خطاب الاسقف لوقا جيدياتا من نوڤغورود المكتوبة في المدة ذاتها المسماة أيضاً: "خطبة حول الشريعة والنعمة"؛ لكن عمل كليمنت سمولياتيتش، الذي اصبح لاحقاً متروپوليت كييڤ(١١٤٧-١١٥٥م) والذي حمل عنوان: "رسالة الى القس توما"، من اهم الاعمال بعد عمل هيلاريون؛ في حين يعد اعمال الاب كيريل اسقف توروف(توفي عام ١١٨٢) النموذج الابداعي للأدب الروسي في القرن الثاني عشر، وقد كتب كيريل رسائل، وامثولات اخلاقية، وصلوات، واناشيد دينية، وعظات، ودخلت بعض عظاته في التراث الروسي القديم؛ وقد استشهد في مواعظه بفقرات من الكتاب المقدس، ومقاطع من كتابات يوحنا فم الذهب، واخرى من كريلوس الاسكندري، وسمعان ميتافراستس، ودمج كل ذلك في توليفة اقتباسات مع اعادة سبك وصياغة جديدة[٧١].

وسرعان ما تحولت الكنيسة الروسية بالتدريج الى مؤسسة اقطاعية كبيرة جداً، وبمساعدة الامراء استولى رجال الكنيسة على المزيد من الاراضي ذات العدد الكبير من القرى والفلاحين التابعين، وكان القساوسة يجمعون الاموال من المؤمنين اجراً على تأديتهم للطقوس الدينية والتعميد والدفن، وكانت الكنيسة التي تبرر الاضطهاد الاقطاعي، تُبرز نفسها كأقطاعي مستثمر[٧٢].

تشير الدلائل الى ان الكنيسة لعبت دوراً مهماً في النظام الثقافي في روسيا في القرن الحادي عشر الميلادي، ويعود سبب ذلك الى حد ما الى عامل اللغة، ففي مستهل العصور الوسطى كانت الاختلافات بين اللغات السلاڤية كل على حدة اقل عما كانت عليه في العصور الحديثة، وحيث ان السلاڤية الكنسية قد بُنيت على اساس اللهجات المقدونية، والموراڤينية، والبلغارية؛ فقد كان سهلاً ان يفهمها الروس، والحقيقة انها اصبحت اساس اللغة الادبية الروسية، وبينما جُلب العديد من الكتب الى روسيا من موراڤيا وبلغاريا؛ فإن عملية الترجمة كانت تتم في كييڤ، لذا كان تحت تصرف القراء الروس في القرن الحادي عشر مكتبة ذات تجهيز جيد من الكتب المخطوطة، وعلى الاخص الكتب ذات الموضوعات الدينية[٧٣]؛ فقد وصلت الينا بعض الكتب القديمة بشكلها الاصلي وكانت ذات طبيعة دينية، وان اول روسي وصل إلينا مؤلفاته الدينية كان لوكي زيهياتا(Luki Zhidyata)، الذي اختار ياروسلاڤ الحكيم ليصبح اسقفاً في

نوفغورود عام ١٠٣٦، والذي بُنيت تحت رعايته كاتدرائية القديسة صوفيا في نوفغورود[٧٤].وان اقدم مخطوطة وصلتنا من الادب الروسي القديم هي انجيل اوستروميرا المتضمن نصوصاً دينية منسوخة من ترجمة بلغارية ومقدمة لحاكم نوفغورود اوستومير في عام ١٠٥٦-١٠٥٧م. وقد احتلت المرتبة الثانية في سلسلة الكتب المترجمة السير لحياة القديسين وكتابات آباء الكنيسة ولاسيما اعمال يوحنا فم الذهب، وباسيل العظيم، واخيه غريغوري النسسي، وغريغوري النازيانزي، وهذان الاخيران من اعمدة الادب الاغريقي؛ وهذه الكتابات اما ترجمت وصدرت بشكل مستقل، وإما جُمعت في مجموعات مع مقتطفات أو مختارات من مؤلفين آخرين. ووصل إلينا من ادب إمارة كييف الباكر مجموعتان منسوختان في عامي ١٠٧٣ و١٠٧٦ لمصلحة الامير سفياتوسلاف ابن ياروسلاف الحكيم، وتضم قصصاً كنسية وتهذيبية، نُسخت الأولى عن مخطوطات امتلكها سمعان البلغاري واشتملت أيضاً على بحث في الاستعارات للكاتب الاغريقي البليغ جورج غويربوسكوس وقائمة بـ ٢٥ كتاباً سرياً ممنوعاً من قبل الكنيسة، فضلاً عن شروح وتعليقات تدل بوضوح على ان الادب السلافوني الكنسي كان قادراً على جذب القارئ لأسباب عديدة حتى في عهد إمارة كييف؛ ومن هذه التعليقات ما يلي: "ان كنت تبغي قصصاً عظيمة بإمكانك قراءة سفر الملوك، وان كنت تود قراءة مثيرة ورفيعة عليك بـ سفر اخبار الانبياء، وسفر ايوب، أو سفر يشوع بن سيراخ؛ لكن ان كان طلبك كتب الاناشيد فأقرأ المزامير"[٧٥].

خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين شهدت روسيا تشييد عدد من الكنائس المهمة، وتعد كاتدرائية القديسة صوفيا الحجرية التي أُنشئت بدل كاتدرائية خشب البلوط في نوفغورود، وكنيسة سباس-نيريديستا، وكاتدرائيتا اوسبينسكي وديميتروفسكي في مدينة فلاديمير، وكنيسة پوكروف على نهر نيرل وليس بعيداً عن مدينة بوغوليوبوفو ابرز تلك الكنائس. وتمتاز كنائس هذا العصر بجدرانها الحجرية البيضاء، وصورها الحائطية، وايقوناتها الرائعة الكثيرة التي تزين داخلها، وابوابها المحفورة التي تشير الى عظمتها وتناسق اشكالها[٧٦]، وفي الوقت ذاته تعكس مدى تزايد اهمية الكنيسة واهتمام الامراء الروس بتشييدها وصرف الاموال في تزيينها وتنظيمها. في الوقت ذاته كان فن الرسم الروسي في تلك الفترة يخدم مصالح الكنيسة المسيحية، فقد اتسمت اثار الرسم الرائعة مثل ايقونات مدرسة فلاديمير-سوزدال الفنية، وصور القديس نيقولا في نوفغورود بفخامتها[٧٧].

خلال القرن الثاني عشر استمرت الحياة الثقافية بيد الكنيسة فقد كتب الكاهن نسطور في اواخر القرن الحادي عشر حياة القديس ثيودوسيوس وهو راهب مثقف من دير كافس؛ والذي يُنسب إليه اقدم سجل روسي للحوادث التاريخية يعود للقرن الثاني عشر ويدعى: قصة السنين الغابرة والذي وضعه حوالي عام ١١١٣م، وقد استفاد هذا الكاهن في وضع مؤلفه هذا من سجلات كييف ونوفغورود التي كُتبت قبل ذلك، ومن بعض الوثائق التاريخية مثل اتفاقيات الروس مع الاغريق، والحكايات الشعبية، ومؤلفات المؤرخين البيزنطيين. ويمكن ان نلاحظ ان هذا السجل التاريخي ينضح بالأيديولوجية الكنسية والاقطاعية، كما رأى هذا الكاهن في كل الحوادث مظهراً من مظاهر الارادة الالهية، وهو ايضاً من انصار سلطة الامير القوية، إلا ان في السجل تعبيراً ساطعاً عن فكرة وحدة الاراضي الروسية، فيدين نسطور بحزم نزاعات الامراء ويدعوهم الى توحيد قواهم لمكافحة العدو الخارجي، كما انه يصف الحوادث في روسيا القديمة وعلاقتها مع التاريخ العالمي[٧٨].كما تلقى الروس من جيرانهم الغربيين والجنوبيين اعمالاً ادبية من جنس الادب الشعبي المتواضع شبيه بالأدب البيزنطي من قُبيل قصص حول حياة آباء البرية، وتواريخ الاحداث، واعمال مجهولة المؤلف، وكلها مرتبطة بالكنيسة بشكل أو بآخر، ومن بين تلك الترجمات المنقولة من بلغاريا في مطلع القرن الثاني عشر كان تاريخ يوحنا ملالاس الكاتب السوري البليغ من القرن السادس الميلادي؛ وتاريخ جورج الراهب المسمى الخاطئ المؤلف في اواسط القرن التاسع الميلادي؛ ويبدأ كل منهما الحديث من خلق آدم وصولاً حتى زمنه، ويسردان تاريخ الشعب اليهودي وامبراطوريات الشرق وروما والعالم الهلنستي وصولاً حتى الامبراطورية البيزنطية ودورها في خلاص الانسان، وينطوي هذان التاريخان على ثروة معلومات لافتة مختارة من مصادرة متنوعة؛ وفي هذا السياق يعد تاريخ ملالاس مهماً بوجه خاص، لأنه يُدخل في سرده المتشعب قصصاً عن آلهة وثنية وأبطال اغريقيين قدماء، واعاجيب مثيرة، وكوارث رهيبة، حتى يصبح عمله بذلك نوعاً

من الادب البيزنطي الممتع والمسلي؛ على العكس من تاريخ الخاطئ الذي تبرز فيه الايديولوجية الرهبانية بشكل اكثر جلاءً، وعلى هذا النحو كان للتواريخ البيزنطية تأثير حاسم في الكتابات الروسية القديمة من حيث الشكل والمضمون الايديولوجي أيضاً[٧٩].

شكل الغزو المغولي(١٢٢٣-١٥٠٢م) لروسيا صدمة مؤلمة للكنيسة، فقد هلك في المدن المدمرة العديد من رجال الدين، وأحرقت أو نُهبت وسُلبت الكاتدرائيات، والاديرة، والكنائس، وقُتل ابناء الابرشيات، أو اخذوا رقيقاً، وكان الدمار والخراب كبيرين في كييف لدرجة ان متروپوليا الكنيسة الروسية القديمة لم تستطع ان تؤدي رسالتها كمركز للإدارة الكنسية لعدد من السنوات، وحتى صدور منشور الاستثناء من قبل مانگو تيمور لرجال الدين الروس لم يجعل الكنيسة تجد نفسها واقفة على ارضية صلبة مرة اخرى، وقادرة على اعادة تنظيمها كما في السنين التي مضت أو حتى اصبحت اقوى في بعض النواحي عما كان. ومن بين المهام الشاقة التي واجهت الكنيسة في العهد المغولي كانت الاولى تقديم النصيحة الروحية والدعم الاخلاقي للناس الساخطين سواء من الأمراء أم من العوام، ويرتبط بهذه المهمة، مهمة اخرى، هي استكمال تنصير الشعب الروسي، ويجب التذكير هنا، انه في عصر امارة كييف كانت المسيحية قد ترسخت بقوة بين الطبقات العليا، وسكان المدن غير انها لم تنفذ بعمق الى المقاطعات الريفية؛ وفي العهد المغولي تم تنصير القرويين أيضاً، وهذه المهمة أُنجزت عن طريق جهود مكثفة لرجال الدين، وأيضاً عن طريق نمو الشعور الديني بين الناس انفسهم؛ وقد تزايدت اعداد الكنائس والأديرة في كل المدن والمقاطعات الريفية، والسمة المميزة لحركة الرهبنة الجديدة هي روح المبادرة التي قادها افراد هم عبارة عن شباب متقد بروح متوهجة تلقّى طقوس الرهبنة كي يذهب الى البرية، في اعماق الغابة، ويعمل بمشقة في ظروف بدائية، فضلاً عن العبادة، والصلاة، والتأمل، وقد ادت كوارث الغزو المغولي، وصراع الامراء الروس، زيادة على ظروف الحياة الصعبة بشكل عام الى تطور هذه العقلية، وكان القائد المبجل والرائد لهذه الحركة القديس سرجيوس من رادونيز مؤسس دير الثالوث على بعد ٤٠ ميلاً شمالي موسكو، وكان تقواه، وورعه الشخصي مصدر إلهام وتأثير للكثيرين حتى لمن لم يقابله قط[٨٠]. من جانب اخر ما ان استقر الحكم المغولي في روسيا حتى ابدى بعض الحكام المغول بعض التسامح إزاء المسيحية ليس بسبب سياسة منتظمة انتهجوها لكن بسبب عدم اهتمامهم بالمسألة الدينية بشكل رئيس، واصبح المواطنون والاجانب المسيحيون الذين عاشوا في اطار دولة المغول يتمتعون بنوع من الحرية الدينية، إذ رغم ان الكنيسة النسطورية[٨١] قد خسرت كل نفوذ لها بعد تحول الحاكم المغولي بركة خان(١٢٥٦-١٢٦٧م) الى الاسلام، إلا ان المبشرين المسيحيين تزايد نشاطهم في دولتهم ولاسيما في بلاد القرم وحوض الڤولغا، مستغلين سياسة التسامح التقليدي للمغول نحو الأديان، والمعروف ان بركة سمح للرهبان الفرنسيسكان وتجار جنوى وغيرهم بالقدوم الى بلاده منذ عام ١٢٥٨م، كما سمح لهم ببناء بعض الكنائس الكاثوليكية في المدن التابعة له، واستخدم الاساقفة كسفراء بينه وبين بيزنطة، وقد رأى الرحالة العربي ابن بطوطة هذه المؤسسات الدينية المسيحية في شبه جزيرة القرم اثناء زيارته لها عام ١٣٢٥م، ويبدو ان مغول القبيلة الذهبية اتبعوا السياسة الدينية لاستقطاب وجذب التجار الأوروبيين، بسبب ان التجارة تمثل العمود الرئيس لاقتصاد بلدهم[٨٢]. وقد قل النشاط التبشيري المسيحي في عهد تدان منگو(١٢٨٠-١٢٨٧م) بسبب النزاعات المذهبية بين النساطرة والارثوذكس والكاثوليك من جهة، واخلاص الخان الجديد للإسلام من جهة اخرى[٨٣].ولنا ان نقدم مثال آخر لسياسة التسامح الديني لدى دولة المغول في عهد اوزبك خان(١٣١٣-١٣٤٠م) الذي أظهر الكثير من التحمس في نشر الإسلام وتفانيه في الإخلاص له، إلا انه في الوقت ذاته كان كثير التسامح نحو رعاياه من المسيحيين، فقد منحهم الحرية التامة في إقامة شعائرهم الدينية من غير ان يتعرض لهم احد، وذهب في تسامحه الى أبعد من هذا، إذ سمح لهم بالتبشير لدينهم ونشره في بلاده. ومن أهم الوثائق التي تسترعي الانتباه عن التسامح الإسلامي في عهد اوزبك انه منح الميتروپوليتان بطرس عام ١٣١٣ مرسوماً جاء فيه: "بمشيئة الله العلي القدير وعظمته ورحمته: من اوزك الى امرائنا كبيرهم وصغيرهم وغيرهم، ان كنيسة بطرس مقدسة فلا يحل لأحد ان يتعرض لها أو لأحد من خدمها أو قسيسيها بسوء، ولا ان يستولي على شيء من ممتلكاتها أو متاعها أو رجالها، ولا ان يتدخل في امورها، لأنها مقدسة

كلها؛ ومن خالف امرنا هذا بالاعتداء عليها، فهو اثيم امام الله وجزاؤه منا القتل. ولندع المطران ينعم بالأمان والبهجة؛ ولندعه أو وكيله يقرر وينظم كل المسائل الكنسية بقلب سليم وفؤاد عادل قويم. واننا نعلن في حزم اننا نحن واولادنا وامراء دولتنا وولاة اقاليمنا لن نتدخل بأي حال في شؤون الكنيسة، ولا في شؤون المطران، ولا في شؤون المدن، والمراكز، والقرى، والأراضي المخصصة للصيد في البر والبحر، ولا في خلايا النحل؛ ولا في الأراضي، والمراعي، والصحاري، ولا في المدن، والأماكن الداخلة في املاكها الخاصة، ولا في الكروم والطواحين، ولا في مراعي الشتاء، ولا في اي شيء من ممتلكات الكنيسة وامتعتها. ولندع بال المطران في راحة دائمة خالياً من كل تعب أو نصب، ولندع قلبه سليماً قويماً، ولندعه يصلي لله من اجلنا ومن اجل اولادنا وامتنا...وذا فُرض الخراج أو غيره من الضرائب كالرسوم الجمركية، والمكوس، وضرائب الطرق والأراضي غير المزروعة، أو اذا اردنا حشد الجنود من رعايانا، فلا يجمع شيء بالقوة والإكراه من الكنائس التابعة للمطران بطرس ولا على احد من رجال الدين التابعين له، وكل ما يؤخذ من رجال الدين بالقوة والإكراه، يرد إليهم اضعافاً ثلاثة...ولتكن شرائعهم وكنائسهم واديرتهم ومعابدهم محل الاحترام والتعظيم، وكل من يتهم أو يحط من شأن هذا الدين، فلن يُقبل منه أي عذر ولا يطلب العفو، بل يكون جزاؤه القتل؛ وسوف يتمتع اخوة القسيسين والشمامسة الذين يجلسون الى مائدة واحدة وفي دار واحدة بالمزايا هذه نفسها والحقوق"[٨٤].
ويمكن ان نستدل على ان هذا المرسوم لم يكن كلمات جوفاء أو مجرد حبر على ورق، وان التسامح الذي وعد به هؤلاء المسيحيين قد اصبح حقيقة واقعة من الرسالة التي بعث بها البابا يوحنا الثاني والعشرون عام ١٣١٨ الى الخان يشكر فيها للأمير المسلم ما اظهره من عطف على رعاياه المسيحيين، ويُثني على هذه المعاملة الطيبة التي كان اوزبك يعاملهم بها. ويظهر ان خلفاء اوزبك خان لم تدفعهم الرغبة نفسها التي اظهرها هو في نشر الإسلام، ومن ثم لم يكن من المتوقع ان ينجحوا فيما اخفق هو فيه. وكان الروس إذا ادوا الضرائب المفروضة عليهم، تُركت لهم الحرية في اقامة شعائرهم الدينية كما شاءوا[٨٥]. من جهة اخرى نجد انه بعد انهيار ايلخانية ايران عام ١٣٥٥م، نقلت البعثات التبشيرية القادمة من غربي اوروبا، نشاطها من ايران الى بلاد التتار الشمالية، كما كان الأوروبيون يدعون القبيلة الذهبية؛ بعد ان فقدت الأمل بالنجاح في ايران. وكان البابا يوحنا الثاني والعشرين يعتقد ان اوزبك خان، على الرغم من انه لم يرتد عن دينه الى المسيحية، فإنه يمكن اقناعه بأن يسمح للمسيحيين اللاتين بتأسيس مراكز تبشيرية، وقد بنى قناعته على وجود اشخاص مسيحيين في بلاد الخان من الأمراء وذوي النفوذ والأميرات، فضلاً عن ولي العهد تيني بيك. وقد ارسل البابا طلباً عام ١٣٢٣م الى الخان يطلب منه اعادة المسيحيين الذين طردوا من السوداق في القرم من قبل المسلمين. وسرعان ما هرعت اعداد من المبشرين والمبعوثين الى سراي والى منطقة القولغا ابتداءً من عام ١٣٣٨م، وأسسوا بطريركية لاتينية في العاصمة المغولية الى جانب البطريركية الارثوذكسية[٨٦].

في عام ١٣٢٦ أُنشأ في موسكو الكرسي الميتروبوليتاني، وانتقل مركز الكنيسة الأرثوذكسية الروسية الى هناك، ولكن بقي تعيين الأمير للمتروبوليتان يحتاج الى مصادقة بيزنطة، لذا حاول الأمير ديمتري الاول(١٣٢٢-١٣٢٦م) امير تفير تغيير هذا النظام، لكن بعض الاساقفة قاوموا سعيه، بالمقابل اخذت السلطة المركزية تكسب مزيداً من القوة، ومع تزايد قوتها كان الأساقفة يخضعون شيئاً فشيئاً لسلطة متروبوليت موسكو[٨٧]. وقد شهدت هذه الفترة ايضاً تطوراً معمارياً في الكنائس الروسية، اذ تم تشييد تشييد كاتدرائية الصعود في ٤ اب ١٣٢٦ في عهد ايڤان الأول(١٣٢٥-١٣٤١م)[٨٨].

ظلت الكنيسة خلال الحكم المغولي اكثر مما في عصر امارة كييف عاملاً رئيساً في نمو الادب والفنون، فظهرت مواعظ الاساقفة، وحياة القدسين، فضلاً عن حياة الامراء امثال الكسندر نڤسكي الذي استحق التمجيد، وقد كُتبت هذه السير على شاكلة حياة القديسين، وكانت الفكرة الرئيسة لهذه الاعمال ان النير المغولي كان عقاباً إلهياً عن خطايا الشعب الروسي، ولم تستطع سوى المسيحية الحقيقية من ان تقود الروس الى الخلاص من مصيبتهم؛ وكما في عصر كييف، فقد لعب رجال الدين زمن الحكم المغولي دوراً مهماً في جمع التواريخ الروسية وتصنيفها، وربما نلمس دليلاً على الدور الرئيس لرجال الدين في الادب في حقيقة ان اكثر القصائد شهرة في ذلك العهد وهي(زادونشينا/Zadonshina) اي:

"مآثر وراء الدون" التي تمت الاشادة فيها بمعركة كوليكوڤو كانت من عمل احد القساوسة[٨٩]؛ ومن وجهة النظر الادبية فهي تقليد لعمل من القرن الثاني عشر وهو انشودة حملة الأمير ايغور، والتي كما نعرف وضعها احد اعضاء الدروزينا(حاشية الامير الروسي). والمظهر المهم لعملية الاحياء الديني في روسيا زمن المغول كان الفن الكنسي، فالفنون المعمارية، نالها الخراب والدمار في كل مكان عدا نوڤغورود بسبب تدهور حرفة البناء الكنسي نتيجة لتسخير المغول للحرفيين المهرة، ولكن من جانب اخر دخل فن التصوير الديني في شكليه الجصي والايقوني فترة تفتح وازدهار في كل من نوڤغرود وموسكو، ولعب الرسام الاغريقي الكبير ثيوفانس دوراً هاماً في النهضة الفنية، فقد امضى الثلاثين سنة الاخيرة من عمره، ومن حياته الفنيه في روسيا، واثارت شخصيته وروائعه الفنية اعجاب الروس، فاستفاد منه الرسامون كثيراً، لكن في الوقت ذاته، لم يحاول هؤلاء الرسامون تقليد ابداعه الفردي والدرامي، اما اكبر رسامي روسيا في هذا العهد فكان اندريه روبليڤ الذي امضى شبابه في دير الثالوث المقدس، وفيما بعد رسم الايقونة الشهيرة ثالوث العهد القديم لهذا الدير، وتكمن ابدعات روبليڤ في الهدوء الساكن وانسجام الالوان في الترتيب، ويوجد تشابه اكيد بين اعماله واعمال معاصريه مثل الرسام الايطالي فراجيليكو[٩٠].

ان الكنيسة الروسية كفرع من الكنيسة البيزنطية قد تأثرت بالأزمة الدينية والسياسية الخطيرة التي ظهرت في الشرق الأدنى بين عامي ١٣٥٠-١٤٥٠؛ ففي عام ١٣٥٠ عبر التُرك الدردنيل وحصنوا انفسهم في غاليبولي ومن هناك بسطوا بسرعة سيطرتهم على البلقان وطوقوا ما تبقى من الامبراطورية البيزنطية، وفي عام ١٤٠٠، اخضع الترك كلاً من بلغاريا وصربيا ووجد الامبراطور البيزنطي نفسه في وضع ميؤوس منه ولم يعد له من امل سوى طلب المساعدة من الغرب، واستعد البابا للدعوة الى حملة صليبية ضد الترك شريطة اعتراف الكنيسة الاغريقية بسيادة البابا، ودعا المجلس المسكوني للانعقاد في ايطاليا، وهو الذي توجه اليه البيزنطيون بالنداء لمناقشة امكانية اتحاد الكنيستين، وصُدّق على اعلان الاتحاد من قبل المجلس في فلورنسا عام ١٤٣٩ مع اعتراض صوت واحد بين اساقفة الكنيسة الاغريقية، ومع ذلك فإن مجموعة كبيرة من رجال الدين في القسطنطينية ومعظم السكان رفضوا قبول الاتحاد، لقد كان هذا انشقاقاً واضطراباً نتيجة لاختلاط الدين بالسياسة الدولية، فمن الجانب السياسي فشلت الحملة التي دعا اليها البابا بشكل مزرٍ عام ١٤٤٤، اذ بعد تسع سنوات انقض الترك العثمانيين على القسطنطينية وانهارت الإمبراطورية البيزنطية، وحُولت كاتدرائية القديسة صوفيا الى مسجد، ولكن في الوقت ذاته لم يحطم العثمانيين الكنيسة الاغريقية كمؤسسة بل سمحوا باختيار بطريرك جديد، وتبرأ الاغريق حينئذ من فكرة الاتحاد وعادوا للكنيسة الارثوذكسية. اما الكنيسة الروسية فقد مُثلت في مجلس فلورنسا بـ ايزيدوروس، وهو اغريقي أو سلاڤي متأغرق، تم ترسيمه على يد بطريرك القسطنطينية عام ١٤٣٧، وقد سمحت السلطات الروسية له بالحضور الى ايطاليا رغم الشكوك الكبيرة حول الاجتماع، وفي المجلس اثبت ايزيدوروس انه داعم قوي للاتحاد ورُسم كاردينالاً، وقد رجع الى موسكو عام ١٤٤١، وقرأ اعلان الاتحاد في قداس ديني في الكاتدرائية الرئيسية لموسكو، وهذا ما سبب هياجاً واضطراباً بين رجال الدين الموسكوڤيين الذين رفضوا قبول الاتحاد، لذا امر الغراندوق باسيل الثاني باعتقال ايزدوروس الثاني باعتقال مؤقتاً ووضع في الإقامة الجبرية في دير، ثم اطلق سراحه لاحقاً وسافر الى روما ثم أُرسل الى القسطنطينية موفداً من البابا وأُخذ اسيراً من قبل العثمانيين عام ١٤٥٣م، ولم يكن الروس يعرفون ماذا يفعلون فيما بعد اذا ما تم تخليص ايزيدوروس، اذ لم تكن لديهم نية الانفكاك عن كنيستهم الام القسطنطينية لكنهم في الوقت نفسه كانوا يعدونها كنيسة منشقة، وقد انتظروا عبثاً لسنوات عديدة ان تعود الارثوذكسية في بيزنطة، واخيراً دعا باسيل الثاني الى عقد مجلس من الاساقفة الروس لاختيار ميتروپوليت جديد، وهكذا اصبح الاسقف ايونا وهو اسقف متمرس، واسع الاطلاع، أول رئيس للكنيسة الروسية المستقلة عام ١٤٤٨م، ومع ذلك لم يكن هذا العمل ليعني انفصالاً نهائياً عن القسطنطينية، بل عُد هذا الاجراء خطوة طارئة، وفُسر على انه متى ما عادت الارثوذكسية في بيزنطة فإن مباركة البطريرك ستراعى مرة اخرى فيما يتعلق بالمرشحين المقبلين لـ أبرشية[٩١] موسكو، ولكن عندما اعيدت الارثوذكسية مرة اخرى في القسطنطينية عام ١٤٥٣، لم يتم تقبلها في روسيا كما هو

مخطط، اذ كانت الظروف السياسية يجعل تقبلها بالنسبة للروس امراً صعباً، اذ كانت الكنيسة هناك تخضع الى بطريرك يخضع للسلطة العثمانية، وهكذا اصبحت الكنيسة الروسية تدار ذاتيا نتيجة واقع الاحداث السياسية وليس نتيجة اية معارضة متعمدة للبطريرك الروسي[٩٢].

شهد القرنان الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين تزايد الارتباط بين الكنيسة والسلطة بعد بروز سلطة امراء موسكو واخذ رجال الكنيسة يؤكدون على فكرة الاصل الالهي لسلطة الامير الكبير في موسكو، وكانت هذه الاساطير والخرافات ترفع من هيبة امراء موسكو في نظر ابناء الشعب وتقوي مكانة الدولة الروسية بين الدول[٩٣]. ولكن علينا ان ننتبه الى ان هناك موقفان مختلفان تجاه دور الكنيسة في المجتمع قد تبلورا بين القادة الروس الدينيين في اواخر القرن الخامس عشر؛ اولهما: يمكن ان يُدعى مثالياً وروحياً، والآخر: كان عملياً واجتماعياً، وقد ابقت المجموعة الاولى على تقاليد الرهبنة الروسية التي ترجع الى النصف الاخير من القرن الرابع عشر والتي تعززت بواسطة التدفق الجديد للصوفية البيزنطية، والمثال البارز على هذه المجموعة هو الراهب نيل سورسكي الذي اقام ديره في شمال روسيا وراء الڤولغا بالقرب من بيلوزيرو، وطبقاً لنُساك ما وراء الڤولغا، كما سُمي هو واتباعه، فإن اداة نقل الدين هو الصلاة والتأمل، وان الخلاص يمكن ان يُنجز فقط من خلال تجديد القوى الروحية الداخلية، وقد استهجن نُساك ما وراء الڤولغا قيام الكنيسة باكتساب الاراضي والثروات، ولم يطالبوا بحماية الدولة، بل ارادوا ان تكون الكنيسة حرة طليقة تماماً من تدخل الدولة، وعلى خلاف هؤلاء، هناك مناوئوهم اليوسيفيون نسبة الى قائدهم جوزيف رئيس دير فولوكولاسك، الذين شددوا على اهمية الخدمات الاجتماعية التي تنجزها الكنيسة، فهؤلاء جادلوا، وطالبوا بالثروة من الدولة، فضلاً عن الحماية، وتبعاً لهم، فهؤلاء اليوسيفيون كان مستعدون لتقديم مباركتهم الكاملة للدولة[٩٤]. من جانب آخر شهد القرن الخامس عشر ولادة افكار مضادة للكنيسة ورجالها في حركة عرفت من قبل رجال الكنيسة بحركات الهراطقة الذين انكروا الكنيسة الرسمية، ولم يعترفوا بتسلسل آباء الكنيسة، وادانوا طمع وشره رجال الدين وعيوبهم الاخلاقية. وكانت حركات الهرطقة تتضمن احتجاج الجماهير على الاضطهاد الاقطاعي الذي كانت الكنيسة جزء منه، ومن تلك الحركات حركة جديدة عُرفت باسم هرطقة المتهودين، وقد ابتدأت في نوڤغورود، واثارتها زيارة العالم اليهودي زكريا بن هارون هاكوهين الكييڤي عام ١٤٧١م، وهو باحث في الفلسفة والفلك، وقد تأثر بعلمه اعداد من اهالي نوڤغورود من بينهم قسيسان اهتما باليهودية والفلك والتنجيم، وفي عام ١٤٧٨ قابل ايڤان الثالث القسيسين المتهودين فاحبهما ودعاهما الى موسكو، وقد نجحا في تهويد الكثير سواء بين رجال الدين ام بين موظفي الدولة، ولم يكن هؤلاء المتهودون قد قبلوا اليهودية بالكامل، اذ استفاد البعض من الادب اليهودي لنقد العقائد المسيحية المختلفة، وخصائص معينة في نظام الكنيسة الروسية وممارساتها، ومن بين تلك الاشياء التي وُجهت اليها الانتقادات الاعتراض على استعمال الايقونات؛ وصحة امتلاك الكنيسة الضياع والعقارات، لذا نجد ان رجال الدين لاحقاً عندما تنبهوا الى خطر تلك الحركات كما سنرى اخذوا يطالبون بأن يعاقب الهراطقة: "بالإعدام القاسي والموت"، وفي نوڤغورود نُفذت احكام الاعدام بالهراطقة فعلاً[٩٥].

خلال القرن الخامس عشر كان اعظم الفنانين الايطاليين الذين جذبهم ايڤان الثالث هو ارسطوتالي فيوراڤانتي(Aristotele Fioravantni) البولوني الذي برع بوصفه معمارياً ومهندساً، وقد قدم الى موسكو عام ١٤٧٥، وكُلف ببناء الكنيسة الرئيسية في موسكو وهي كاتدرائية الظهور في الكرملين، وقد أعطي تعليمات محددة بأن تكون الكاتدرائية الجديدة على التصميم السزدالي المشابه لكاتدرائية الظهور في ڤلاديمير التي تعود الى القرن الثاني عشر الميلادي، وقد درس فيورڤانتي الاشكال المعمارية لكاتدرائية ڤلاديمير، وكذلك الكنائس الاخرى في سزداليا(احدى المدن الروسية)، ووجد فيها تجانساً مع ذوقه، وقد كانت الكاتدرائية الرائعة التي بناها في الكرملين اكبر كثيراً من حيث الحجم الكنائس السزدالية، ولم تكن مجرد نسخة مطابقة بل كانت انعاشاً لروح تلك الكنائس[٩٦].

ثانياً: الكنيسة المسيحية في القرن السادس عشر.

خلال القرن السادس عشر غدا اساقفة الكنيسة الارثوذكسية اقطاعيين كباراً، وكانت الكراسي الاسقفية تؤدي وظائف قضائية، وتحت تصرفها كادر بيروقراطي ضخم، من جامعي العشر، والكتبة،

وناظري الضياع وما الى ذلك[٩٧]؛ تميزت حياة رجال الدين بالجشع الفائق وحب المال فأضعف الطمع المتزايد والحياة الفاسقة عند القساوسة والرهبان مكانة الكنيسة في نظر المسيحيين[٩٨]. وقد ادى تزايد النفوذ الكنسي من جهة، وتزايد الاملاك الكنسية، الى تزايد نشاطات الهراطقة كما اسمتهم الكنيسة، اي الناس الذين لم يتفقوا مع تعاليم وشعائر الكنيسة الرسمية؛ وكانت تلك الحركات متنوعة في افكارها، ولكن بشكل عام كان الهراطقة ينادون بالعدالة فقد بشر ماتڤي باشكين مثلاً بأن جميع الناس اخوة، ولذلك لا يجوز للأغنياء ان يستعبدوا الفقراء، وكانت تلك الآراء تضر بمصالح الكنيسة الاقطاعية، لذا اخذ رجال الدين بمهاجمة باشكين وحبسوه في الدير؛ كما ان ڤيودوسي كوسوي الذي كان في الاصل من الارقاء، كان ينادي بالمساواة بين الناس جميعاً بغض النظر عن قومياتهم ومعتقداتهم الدينية، ودعا كوسوي اتباعه ان لا يترددوا على الكنيسة ولا يصلوا ولا يصوموا، وانكر بشكل قاطع تعاليم الكنيسة حول الآخرة وخلود الروح، وكان يرى ان كل ما يملكه المسيحيون الصادقون في ايمانهم يجب ان يكون مشاعاً بينهم؛ لكن ملاحقات رجال الكنيسة لـ كوسوي اجبرته على مغادرة البلاد[٩٩]. لكن من اخطر حركات الهراطقة كانت حركة المتهودين التي ظهرت في سبعينيات القرن الخامس عشر كما رأينا، وكان اليوسفيون اول نبه الى انتشار حركة التهويد ودعوا الى اجراءات قوية لكبحها، وقد نوهوا بمحاكم التفتيش الاسبانية كأحسن وسيلة يمكن استخدامها، وفي المقابل حاول رهبان ما وراء الڤولغا ان يبرهنوا على ان الاقناع هو الاسلوب المسيحي الصحيح لمقاومة الهرطقة، ولسنوات عديدة، تردد ايڤان الثالث في العمل ضد المتهودين، ومن وجهة النظر العملية دعم ايڤان الموقف السلبي لكلا الفريقين: رهبان ما وراء الڤولغا والمتهودين في نظرتهما تجاه الاملاك الكنسية، وحوالي عام ١٥٠٠ قام ايڤان بمصادرة اراضي الكنيسة في نوڤغورود، وخطط ان يتبع ذلك بسياسة مشابهة في موسكو، ومع ذلك، فعند اجتماع المجلس الكنسي عام ١٥٠٣ اثبت اليوسفيون انهم الاغلبية، وقبل ايڤان على مضض التخلي عن مخططاته فقابل ذلك اليوسفيون بتقديم الدعم الكنسي الكامل لحكم ايڤان الارستقراطي، وفي عام ١٥٠٤ التقى المجلس الكنسي في جلسة اخرى مع سيطرة كاملة لليوسفيين، اتخذ مجمعها قراراً باجتثاث كل انواع الهرطقات، واوصى بحرق زعماء المتهودين وتبع هذا القرار سيل من الاعدامات، وخلال سنوات قليلة كانت هذه الهرطقة قد اخمدت، ومنذ ذلك التاريخ احكم اليوسيفيون سيطرتهم الكاملة على ادارة الكنيسة الروسية، فيما اخذ تأثير رهبان ما وراء الڤولغا في التلاشي بالتدريج بالرغم من ان حقيقة عدداً من البويار(الاقطاعيين) كانوا يتعاطفون مع تعاليمهم[١٠٠].

نتج عن حركة الهرطقة اثار على الكنيسة والحكومة على حد سواء، وسعت كلا السلطتين الى اجراء تغييرات داخلية في مؤسستيهما من اجل اصلاحهما من جانب، وتعزيز دورهما في المجتمع من جانب ثانٍ، ومن تلك الاجراءات:

١. ادرك كلاً من الحكومة الموسكوڤية، واساقفة الكنيسة سواءً أ كانوا يوسفيين ام غير ذلك، ان افتقاد الثقافة بين رجال الدين الروسي كان احد الاسباب في انتشار الهرطقات، وقد بدا ان التعاون سواء مع علماء الكنيسة الرومانية الكاثوليكية أو مع الاغريق لترجمة المزيد من الاعمال الدينية أمر مرغوب فيه، وان كانوا يفضلون بالطبع الاغريق، وفي عام ١٥١٦ دُعي الى موسكو عالم الانسانيات الاغريقي البارز ميخائيل تريبولس المعروف باسمه الرهباني ماكسيم حيث امضى بقية حياته في موسكو بسبب عدم السماح له بمغادرة روسيا، وقد ترجم عدداً من الاعمال اللاهوتية البيزنطية الى السلاڤية، وصحح بعض كتب الكنيسة التي تُرجمت من قبل، ونصح ايضاً برجوع الكنيسة الى حظيرة متروپوليا القسطنطينية التي كان اليوسيفيون يشمئزون منها كثيراً، ومن ناحية اخرى صنع ماكسيم اصدقاء له من بين رهبان ما وراء الڤولغا الذين ابدوا اعجاباً كبيراً بعلمه وشخصيته.
٢. لكي يُعزز تأثير الكنيسة اخذ رجال الدين يعدون الامراء قديسين فضلاً عن الرهبان؛ وبمشاركة الميتروپوليتان ماكاري وُضعت القراءات الشهرية تهذيباً للمؤمنين، وهي كُتب تتضمن: "سير حياة القديسين"، والقواعد الكنسية، وكانت هذه الكتب تبشر بالإذعان للكنيسة وضرورة انصياع العبيد لأسيادهم. ومن الكتب الكنسية ايضاً كتاب دوموستروي(تدبير المنزل) الذي يتضمن نصائح لا تختلف عن تلك السابقة، اذ يدعو مؤلف الكتاب الرعية لخدمة اسيادهم بإخلاص وتفانٍ والمحافظة على

ممتلكاتهم؛ اما الاسياد فيدعوهم الى الاقتصاد والبخل، وان رب البيت والعائلة يجب ان يعلم خدمه واطفاله ليس بالكلمات فقط، بل بالضرب ايضاً، ولكن: "بعدم ضربهم على الاذن أو الوجه لكل ذنب"، بل: "ضربهم بالسوط حسب الذنب"، و: "الضرب بأدب مع الامساك بأيديهم". إلا ان كتاب دوموستروي تضمن نصائح مفيدة عن المحافظة على نظافة المنزل والمطبخ والادوات المنزلية، وعن اعداد الطعام، والمشروبات، وعن الاعتناء بالملابس وصحة الانسان.

٣. استلزم انتصار اليوسفيين تحديداً وتعريفاً جديدين لدور الحاكم والكنيسة الموسكوڤية في العالم المسيحي، ولهذا السبب، برزت فكرة روما الثالثة، وكان بروزها تكيفّاً مع المبدأ البيزنطي الذي يقوم على اساس ان الكتاب البيزنطيين حاولوا ان يبرهنوا على انه في الفترة المبكرة من العصور الوسطى انتقلت الدولة المسيحية من روما الى القسطنطينية، اي روما الثانية، والآن مع انهيار الامبراطورية البيزنطية على يد العثمانيين فإن موسكو في رأي بعض الكتاب الروس اصبحت روما الثالثة بالمعنى السياسي والديني، فضلاً عن انها آخر روما، اي لن يكون غيرها فيما بعد، لذا كان تتويج ايڤان الرابع قيصراً عام ١٥٧٧ يسير في الاتجاه نفسه مع هذه الفكرة، وكي يكتمل تأسيس روما الثالثة اتخذ ميتروپوليتا موسكو لقب البطريرك، وهذا ما حدث عام ١٥٨٩ في عهد ثيودور الاول، كما سنرى، وكان الاسقف جول اول بطريرك روسي.

٤. لقد اعتقد الذين صاغوا فكرة روما الثالثة في بداية الامر ان نهاية العالم اقتربت، وحان يوم الحساب، وكان ذلك مجرد محاولة منهم كي تبقى المسيحية الارثوذكسية حية بوصفها ملجأً اخيراً لهذه النهاية، لكن اتباعهم اقل تشاؤماً مؤملين في السعادة الابدية المسيحية، وايضاً لم يكن يقلقهم سوى مصير المسيحية الارثوذكسية، لذا دعوا الى عدم خوض حروب صليبية ضد العالم الخارجي، وراموا قبل كل شيء تنظيف بيتهم، وتحسين نظام الكنيسة الروسية، ونتيجة لذلك دُعي المجلس الكنسي الى الاجتماع عام ١٥٥١ وهو المعروف بـ ستوغلاڤ(الفصول المئة) لأن محاضر جلساته قُسمت الى مئة قسم، وقرر هذا المجلس انهاء المفاسد المختلفة في الإدارة الكنسية، وتحسين المعرفة، ونصح باستعمال النسخ المصححة من كتب الكنيسة فقط. وقد اشارت تلك القرارات الى الوضع المتردي للكنيسة: "ان الخوارنة(جمع خوري اي نائب الاسقف) والساكريستو(الحافظ لغرفة المقدسات) في حالة سُكر دائم في الكنيسة، ويقفون دون وجل يتبادلون الشتائم، الأمر الذي يُهلك أرواح المؤمنين سُدى...". كما حرّم المجمع على المؤمنين العزف على الآلات الموسيقية، وحلق اللحى، واللعب بالشطرنج، وقراءة الكتب ذات المحتوى غير النقي، وتنظيم عروض الألعاب ومشاهدتها، كما حرّم عليهم أيضاً إقامة صلات مع الاجانب الذين عدوهم هراطقة وملحدين.

٥. ان بطريركية موسكو لم تتأسس إلا بعد عهد ايڤان الرهيب، اذ لم يتعجل هذا في انشاء منافس لسلطته، فقد تأسست عام ١٥٨٩م في عهد القيصر ثيودور الاول(١٥٨٤-١٥٩٨م)، وقد أسسها هو وزوجته القيصرة ايرينا واخوها بوريس غودونوڤ، وتقررت المسألة برمتها دون مشاركة رجال الدين، واقتصر مشاركتهم على انتخاب المجمع الكنسي الميتروپوليتان ايوڤ وهو من انصار بوريس غودونوڤ بطريركاً لروسيا[١٠١].

٦. لمنع الأخطاء في النسخ الدينية قام الميتروپوليتان ماكاري بإنشاء مكتب طباعة في موسكو عام ١٥٥٣، وكانت قد بدأت طباعة الكتب السلاڤية في پولندا عام ١٤٩١، وفي بوهيميا عام ١٥١٥، وفي ليتوانيا عام ١٥٢٥، ولكن في موسكو كان التطور بطيئاً، وهذا المكتب أُغلق بعد وفاة ماكاري عام ١٥٦٣، ومع ان مطبعة جديدة أُنشئت عام ١٥٦٨ إلا انه من الصعوبة بمكان حصر عدد الكتب التي نُشرت في موسكو قبل عام ١٦٠٠.

بقيت الثقافة في روسيا مرتبطة خلال القرن السادس عشر بالكنيسة والسلطة، إذ بقي فن الرسم مرتبط بالكنيسة ويشهد على ذلك كاتدرائية بلاغوڤيشينسكي التي كانت مزينة بروائع الصور الجدارية[١٠٢]؛ كما ان الجدل الديني والافكار الجديدة عن الكنيسة والدولة تم التعبير عنه في ادب غزير من الكتيبات والرسائل الانجيلية والبحوث. كما ظل فن البناء مرتبط بالقصر والكنيسة، وفيما يخص الاخيرة، فبعد عام ١٥٣٠م فإن تصميماً معمارياً جديداً اصبح شعبياً في موسكو، ومثّل انقطاعاً تاماً عن

التقاليد البيزنطية، واصبحت السمة المميزة للكنائس التي بُنيت في هذه الفترة هو البرج، ويعلو الكنيسة سقف هرمي أو في بعض الاحيان مخروطي الشكل، وهذا الشكل اصبح يُعرف بالكنائس الخيمة، وهو ما يوحيه شكل السقف، ومن الامثلة الرائعة على هذا التصميم كنيسة قرية كولومينسكوي، وهي تبعد حوالي ١٢ ميلاً عن موسكو وقد انتهى العمل فيها عام ١٥٣٢، ويُنسب الى الوسيونو، وفي رأي مؤرخي الفن فإن التصميم كان تعديلاً عن المباني الخشبية لشمال روسيا، كما توحي بتأثير عمارة اسيا الوسطى من بينها العمارة الهندية على فن العمارة الموسكوفي العائد للقرن السادس عشر[١٠٣]. ومن النماذج الخاصة العائدة لهذا القرن كاتدرائية شفاعة السيدة العذراء المعروفة باسم باسيليكا القديس باسيل، وقد بُنيت في الساحة الحمراء في موسكو بين عامي ١٥٥٥-١٥٦٠م، وشيدها المعماريان الروسيان بارما وبوستنيك، والاخير من مدينة بسكوف، والكاتدرائية عبارة عن مجموعة قباب رائعة متوجة بقباب بصلية الشكل وفيها برج مركزي يرتفع اعلى بكثير عن القباب، وشبيه بالخيمة، والزخارف كثيرة، وأول انطباع تحدثه الكنيسة لدى المشاهد انها من خيال حكايات الجن الروسية مع لمسات مضافة من عصر النهضة الايطالية[١٠٤].

لكن في الوقت الذي ارتبطت الفنون الرسمية بالكنيسة ابدى رجال الكنيسة مقاومة شديدة للفنون الشعبية، فقد ولدت في الوسط الشعبي الروسي مشاهد مسرحية بشكل رقصات جماعية، ومسرح للدمى حيث يمثل فيها المهرج المرح بيتروشكا، وسرك الدببة، كما برزت العاب المهرجين والممثلين الشعبيين المحترفين، لكن رجال الكنيسة ادانوا تمثيل أولئك المهرجين على اعتباره امراً شيطانياً، وذنباً يجر الناس الى الجحيم بصورة مباشرة، إلا انه رغم مقاومة الكنيسة لهذا النمط من الفن فإن مسرح المهرجين انتشر انتشاراً واسعاً في روسيا[١٠٥].

ثالثاً: ازمات الكنيسة في القرن السابع عشر.

خلال القرن السابع عشر واجهت الكنيسة اخطر المشاكل في تاريخها والتي يمكن توضيحها ادناه:

١. **الانتفاضة الفلاحية**: ظلت الكنيسة ورجال الدين يسعون الى تعزيز سلطتهم الاقطاعية مما دفعهم للوقوف بوجه اي حركة تقلل من تلك الامتيازات، وهذا ما نجده في موقفهم تجاه اضخم انتفاضة فلاحية في روسيا التي عُرفت بالحرب الفلاحية بين عامي ١٦٠٦-١٦٠٧م بقيادة رجل يدعى ايڤان ايسايڤيتش بولوتنيكوف، فقد كتب البطريرك غيرموغين في ٢٠ تشرين الثاني ١٦٠٦ عندما بدأت الانتفاضة: "اليوم ثارت الاعشاب الضارة(يقصد الفلاحين الثائرين) المجللة بالذنوب بعد ان نسيت مخافة الله وهي تريد ابتلاع سنابل القمح(اي الطبقة العليا)؛ لقد اجتمع قُطاع الطرق واللصوص والارقاء الهاربون من البويار والدوفريان في اوكرانيا سيڤيرسكايا المهانة التي هلكت من قبل، واتفقوا مع اللصوص القوزاق الذين تنكروا لله والعقيدة الارثوذكسية وتبعوا الشيطان وانصاعوا لإيحاءاته، فأهانوا مدن اوكرانيا سيڤيرسكايا بمختلف الاعمال الشريرة، ووصلوا الى ارض ريازان والمدن الاخرى وهناك حقّروا الايقونات المقدسة والكنائس المقدسة ونهبوا البيوت وقتلوا الكثيرين....(وبعد ذلك) وصلوا الى مدينة قيصر موسكو، ثم الى كولومينسوكويه، وتوقفوا(هناك) واخذوا يبعثون بنشراتهم اللصوصية الى المدن يدعون فيها المدقعين وخدم البويار والدوفريان ومختلف الاشقياء للقيام بشتى الاعمال الشريرة والقتل والنهب". كما اشار مصدر اخر عن موقف الرهبان من الانتفاضة: "...لقد خرج الشيطان نفسه من الظلمات يحمل الشرور، فأثار الكثيرين وخاصة عدوي الإله الكافرين...ايليا غورتشاكوف، ايڤان ايسايڤيتش بولوتنيكوف، وادعى ايليكا المجنون بأنه الأمير بيوتر ابن جلالة القيصر العظيم...فيودور ايڤانوڤيتش...واعتبره جميع سكان تلك المنطقة(الامير الحقيقي) وعلى اثرهم سكان اوكرانيا سيڤيرسكايا وجميع المتمردين...التحقوا به، واحتلوا كثيراً من المدن التي انتقلت الى جانبه...ومنها مدن: بوتڤيل، وريلسك، وتشيرنيغوف، وموروم، وكورسك، وستار، ودوب، وكرومي، وجميع مدن اوكرانيا سيڤيرسكايا، ومناطق شاتسك، وريازان، وجميع املاكها واراضيها. واجتمع الجيش العظيم ووصل الى سيربوخوف؛ اما سكان سيربوخوف...فانتقلوا جميعهم الى جانبهم، وكذلك فعل سكان كالوغا، وكولومنا...وعندما عرف القيصر ڤاسيلي شويسكي بذلك ارسل رسله الى مدن واراضي دولته كلها لجمع الجيش، وأرسل كثيراً من القادة العسكريين مع قوات كبيرة لملاقاة قطاع الطرق الغفيرين، وهكذا وصل الثوار الى دير سيمونوف الذي

كان فيه قناصة ارسلهم القيصر ڤاسيلي من موسكو لحماية الرهبان...وبدأ المتمردون سفاكو الدماء يغوون الرهبان بالكلمات المعسولة، آملين ان يخدعوا رعية المسيح والقناصة في الدير كما خدعوا سكان المدن الآخرين. وكان الرهبان، حاملو صورة الحكمة والتواضع والطامحون الى ما في السموات العليا والمعرضون عما في الأرض، قد رفضوا كلمات المتمردين المعسولة واغراءهم، بل قرروا ان يدافعوا بقوة عن العقيدة المسيحية الارثوذكسية والقيصر المؤمن...وان يقفوا بثبات وان يقاتلوا المتمردين حتى الموت دون ان يستسلموا لهم، فأخذوا يلومونهم ويفضحون احابيلهم المجنونة"[١٠٦].

٢. **الازمة الدينية الاوكرانية:** في عام ١٥٩٦ أعلن عن اتحاد كنيسة روسيا الغربية في اوكرانيا مع روما في اتفاقية بريست ليتوفيسك، والواقع ان اغلب المندوبين كانوا ضد الاتحاد كونهم موالين للطائفة الارثوذكسية التقليدية، لكن معظم القساوسة اعترفوا بسلطة البابا، واكدت الحكومة البولندية على شرعية الكنيسة الموحدة وحاولت تقويض الكنيسة الارثوذكسية الاغريقية في بيلاروسيا واوكرانيا معاً، وسلمت المباني الكنسية الى الاكليروس الموحد، كما تمت مصادرة الكتب والكراسات المعدة من قبل العلماء الارثوذكس المضادة للأتحاد، ويجب ان نضيف انه من خلال هذه الفترة تم تحويل معظم امراء روسيا الغربية الى الكاثوليكية الرومانية وهم الذين كانوا حتى منتصف القرن السادس عشر المدافعين الاشداء عن الكنيسة الارثوذكسية الاغريقية، ولم يبق سوى القوزاق الزابوروزي الذين تبنوا دور الحماة للعقيدة الارثوذكسية في اوكرانيا. لكن الازمة الدينية انتهت قبل نهاية الربع الاول من القرن السابع عشر، ففي عام ١٦٢٠ التأم مؤتمر الكنيسة الارثوذكسية في كييڤ، وقام فيه القوزاق بدور فعال، وقد رسّم تيوفانس بطريرك القدس عدداً من الاساقفة الجدد، وهكذا استعيدت الهيئة الكهنوتية الارثوذكسية في روسيا الغربية، واعترفت الحكومة البولندية على مضض بوجود الكنيسة الارثوذكسية الاغريقية في اوكرانيا وان لم تمنحها سوى حقوقاً محدودة[١٠٧].

٣. **مشاكل الاصلاح الديني:** بحلول عام ١٥٥٠ كانت الكنيسة الارثوذكسية قد تعززت في روسيا سواءً من ناحية العقيدة أم من ناحية التنظيم، وبدت كأنها اساس البلاد، لكن ذلك لم يكن صحيحاً، لأن الاضطراب استمر في المسائل الروحية، وبزيادة الاحتكاك بالاجانب وُلد اهتمام روسي بالفكر الغربي حيث أظهر قلة من الروس في ذلك الوقت ميلاً نحو الكاثوليكية الرومانية، غير ان هناك من تأثر بالبروتستانتية، وقد حضرت الحكومة الروسية على الروس التحول عن الكنيسة الارثوذكسية الاغريقية؛ اما حالات التحول الصريح نحو البروتستانتية فكانت قليلاً، ولكن هناك اشارات في المراجع تفيد ان العديد من الموظفين الحكوميين، فضلاً عن التجار كانوا يتعاطفون سراً مع العقيدة البروتستانتية. وقد ظلت الاغلبية الساحقة من الناس متمسكة بكنيستها التقليدية، ومع ذلك فعلى الرغم من انهم كانوا يعدون الارثوذكسية الاغريقية هي الاساس للحياة الروحية الروسية، فإن العديد من قادة الكنيسة سلموا بضرورة ادخال اصلاحات معينة في الكنيسة، وتعريف جديد للعلاقات بين الكنيسة والدولة؛ وحول النقطة الاخيرة كان هناك شعور لدى بعض الاساقفة ان محنة روسيا كانت- الى حد ما- بسبب سلبية الكنيسة واللامبالاة خلال الازمات السياسية، وكان هناك جدل على ان للكنيسة واجب تقديم ارشاد قوي للأمة، وكان اضطلاع البطريرك فيلارت(١٦١٩-١٦٣٣)(وهو والد ميخائيل رومانوف الذي انتخب قيصراً لروسيا عام ١٦١٣) بلقب العاهل العظيم قُصد به خطوة لتحقيق مثل هذا الهدف، غير ان البطريركيين التاليين تخليا عن هذا الدور؛ اما بخصوص الاصلاحات فقد كان هناك احساس ان عملية التصحيح ونشر كتب الشعائر الكنسية والصلوات التي بدأت على يد ماكسيم الاغريقي يجب ان تستمر، وكان الاب ديونيسيوس صاحب دير الثالوث المقدس المعجب بكتابات ماكسيم قد عُهد إليه بالمهمة لكن برنامجه أُعيق بسبب قلة ثقافة مساعديه؛ اذ كان هناك قلة من رجال الدين الموسكوڤيين في ذلك الوقت ممن لهم دراية بالإغريقية واللاتينية، واصبح واضحاً لـ ديونيسيوس ان استشارة العلماء الاوكرانيين والاغريق ضرورية، ولكن الكثير من المحافظين الموسكوڤيين عارضوا التسليم بأفضلية الاوكرانيين والاغريق، وفي الحقيقة، فإن موقف ديونيسيوس كان يعني التسليم بفشل فكرة روما الثالثة اي ان موسكو ولدت ناقصة، وقد تطلبت وقتاً لهزيمة معارضة المحافظين، وحتى منتصف القرن كان الاصلاح يسير بطيئاً، ثم بعد ذلك أخذ الاصلاح درجة سريعة من الثورية في عهد البطريرك الجديد نيكون[١٠٨].

٤. **أزمة نيكون:** كان نيكون قسيساً ذو شخصية نشطة وطموحة، وذو ميول استبدادية، يملأه شعور بالأجلال لمنصبه، والأهمية التاريخية لمهمته، . ولد عام ١٦٠٥ من اسرة فلاحية من مقاطعة نيزني نوفغورود، وقد بدأ سيرته الكنسية قسيساً قروياً، ولكن بعد وفاة اطفاله حث زوجته على حياة الرهبنة فيما دخل هو الدير راهباً، وفي عام ١٦٤٨ رُسم متروبوليت لـ نوفغورود، وبعد اربع سنوات، عندما اصبح كرسي البطريركية شاغراً، وعُرض على نيكون، وافق على ذلك شريطة ان يتعهد القيصر والقساوسة: "على طاعته في كل شيء بصفته راعياً لهم وأباً"، وطبقاً للمبدأ البيزنطي- كما عبر عنه البطريرك فوثيوس في القرن التاسع الميلادي- اعتقد نيكون ان البطريرك والقيصر يحكمان معاً المجتمع الارثوذكسي، وان البطريرك: "صورة حية للمسيح"، وهو أكثر أهمية من القيصر، ومثل البطريرك فيلارت مُنح لقب العاهل العظيم. وقد نجح نيكون في فترة قصيرة جداً من جمع ثروة هائلة، بل كان الشخص الأكثر ثراءً في روسيا بعد القيصر مباشرة. وبما انه محباً للإغريقية، ونصيراً للإصلاح، فإن نيكون لم يكن يطيق اي تأخير في تصحيح النصوص، والكتب الكنسية، وتغيير شعائر الكنيسة الروسية حيثما وجد اختلاف عن الاغريقية والاوكرانية، وكان نيكون يُكثر من استشارة البطاركة الشرقيين، كما احضر عدداً من العلماء الاغريق والاوكرانيين الى موسكو لمساعدته، وقد وافق مجلس القساوسة الروس على خطوات نيكون واجراءاته على الرغم من حقيقة ان بعض الاعضاء شككوا في حكمتها، وقد عارض احد القساوسة صراحة فتم نفيه على الفور؛ وخلال المدة بين (١٦٥٣-١٦٥٦) تم تبديل كتب الصلوات والطقوس الروسية في نواح عديدة. وفيما كان جوهر اصلاح نيكون دينياً كان هناك دافعاً سياسياً وراءه أيضاً، وقد حدث الاصلاح في الوقت نفسه مع الازمة الاوكرانية لعام١٦٤٨، وساد الاعتقاد ان في موسكو ان توافق الطقوس الروسية مع الاوكرانية سيجعل من السهل بصورة عامة قبول حماية القيصر لدى رجال الدين الكييڤيين خاصة، وسهولة تحويل ولائهم من بطريرك القسطنطينية الى ذلك الموجود في موسكو. وبشكل عام ان معظم هذه التغيرات التي احدثها نيكون اختصت بالشعائر الدينية، اما اعظم تغيير ملحوظ في الرموز الدينية اليومية، فقد كان مجمع الفصول المائة قد أقر في عهد ايڤان الرهيب عدة قرارات منها: رسم إشارة الصليب بأصبعين وليس ثلاثة؛ كما قرر ان تُرسم الإشارة وفق حركة الشمس وليس عكسها، وقرر كذلك ترديد الهللويا مرتين وليس ثلاث، ولكن نيكون الغى هذه القرارات، وامر باتخاذ اسلوب جديد في اتخاذ علامة الصليب، فقد امر المؤمنين بضم ثلاث اصابع لترمز الى الثالوث المقدس(الاب، والابن، والروح القدس)(١٠٩) بدلاً من اصبعين وفقاً للعادة القديمة في روسيا(رمز الطبيعة الثنائية للمسيح اي اللاهوت الطبيعة الالهية والناسوت الطبيعة البشرية)(١١٠)، كما بدأ بأبدال الايقونات القديمة في الكنائس بأيقونات جديدة؛ ولم تكن التغيرات في نصوص كتب الصلوات متعلقة بالشعائر فحسب بل بصيغة العقيدة أيضاً، ومن خلال اخطاء النساخ القدامى اضيفت كلمة في قانون الايمان المسيحي الذي كان يُقرأ في الكنائس قبل نيكون لوصف الروح المقدسة وهي: "الحياة" لتصبح: "الحقيقة والحياة"، وقد تبدو هذه الامور صغيرة وعديمة الاهمية غير انها بالنسبة للأرثوذكسي المؤمن بالطقوس الكنسية القديمة تعد رمزاً واداة للشعور الديني، وقد ارتبط هذا الشعور بكل تفاصيل الطقوس الكنسية، وكان لكل كلمة في كتاب الصلاة معناها التقليدي، وبجانب هذه التحويرات التي صنعها نيكون بأسلوب مفاجئ وحاسم، لم يكن مدهشاً ان العديد من المؤمنين برهنوا على استعدادهم للدفاع عن حقهم في العبادة بأسلوبهم الخاص بعيداً عن اوامر كل من الكنيسة والسلطات، زيادة على ذلك، فإن بعض خصوم نيكون نبهوا- وهم محقين- الى ان عمل محرريه ومصححيه في بعض الاحيان كان على عجل وسطحياً، وفي بعض الاحيان لم تكن المخطوطات الاغريقية القديمة مؤكدة وموثوقاً منها، وهي التي خدمت كأساس للتصحيح بسبب ان كتب العبادة الاغريقية في ايطاليا لم تكن نفسها تخلو من الاخطاء. وفي بادئ الامر، بدا ان الروس كانوا مذهولين بهذه التجديدات والابتداعات؛ ورفض بعض رجال الكنيسة الالتزام بتعليمات نيكون، فأطلق عليهم اسم: اتباع الطقوس القديمة أو الانقساميون، واطلق على حركتهم اسم الحركة المضادة للنيكونية، ورفع قلة من رجال الكنيسة اصواتهم ضدها، ومع ذلك وفي وقت قصير كسبت الحركة المضادة للنيكونية أو الانقساميون زخماً واتساعاً، وقد ادت التدابير القاسية الى سكب الزيت على النار، واستثير القساوسة، والرهبان، والسيدات الارستقراطيات، والتجار، والفلاحين، واثبت

العديد عن استعدادهم ليصبحوا شهداءً من اجل هذه القضية. وقد تعرض الكثير من اعضاء الحركة المناوئة الى عقوبات مختلفة، وأخذ نيكون يلاحقهم ويضطهدهم بسبب عصيانهم اوامره. بيد ان التغييرات بحد ذاتها لم تكن تستحق تلك الملاحقات، وذلك التنكيل، لأن نيكون ذاته صرح قائلاً فيما يخص كتب الصلوات القديمة: "هذه جيدة، وتلك جيدة، ولا فرق، فأخدم بالتي تشاء منها". وكان قد صرح بذلك التصريح في حديث خاص مع ايڤان نيرونوف؛ بيد انه في الواقع لاحق اتباع الطقوس القديمة بالسيف والنار، ومن اعلن توبته اعيد الى الخدمة، وسمح له بأن يقيم الخدمة الدينية حسب الشعائر القديمة؛ وهذا يعني ان المسألة الاساسية في ذلك الصراع كله، هي إظهار السلطة، والإعلان عن ان تحدي تعليمات الشخصيات الروحية السامية، هو من المحرمات. في الوقت ذاته كان مدى الملاحقات كبيراً جداً، وقد مارس نيكون وانصاره ابشع وسائل الاضطهاد ضد اعدائه من رجال الدين، فقد نفوا انصار الطقوس القديمة الى اديرة معينة، وقُطعوا ألسنة بعضهم، وجلدوهم بالسياط، فقط لأن هؤلاء ارادوا ان يرسموا إشارة الصليب بأصبعين لا بثلاثة؛ وكان الذين وقفوا في وجه التعليمات الجديدة كثيرين، ولم يقتصر الأمر على رجال الدين فقط، انما عارض تلك المستجدات أمراء أيضاً، ومن أشهر هؤلاء الكاهن الاول الأمير افاكوم وهو رجل نشيط، وصاحب قوة روحية كبيرة، وشخصية عنيدة، وجريئة، وكان يرى ان الحياة خارج الكنيسة الشرعية ليس لها معنى، لذا تم عزله من سلك الكهنوت مع انصار الطقوس القديمة الآخرين، وفي عام ١٦٥٧ أُلقي القبض عليه، وتم نفيه الى سيبيريا، وسُجن في بوستوزيرسك، وكان عليه ان يقضي ما تبقى له من العمر هناك في حفرة رطبة ينهشه فيها البرد والجوع؛ كما اقتلعوا ألسنة كثيرين ممن حُكم عليهم بالنفي، وقد تساءل من جراء ذلك الامير افاكوم يوماً: "بالنار، بل بالسوط والمشانق يريدون أن يرسخوا الأيمان بالدين، فأي الرسل كرّز بهذا؟ انا لا اعرف، فمسيحي لم يأمر رسلنا بأن يعلموا هكذا". وهكذا بدا ان نيكون كان منتصراً، لكن علاقاته اصبحت متوترة بالقيصر الكسي ميخالوڤيتش(١٦٤٥-١٦٧٦م)، وبالرغم من احترام القيصر للبطريرك، إلا ان القيصر قد ازداد شعوره بالملل والضيق منه؛ اما البويار فقد عارضوا تدخل نيكون في شؤون الدولة؛ فيما عد نيكون الموقف الجديد المستقل للقيصر نقصاً للشروط الاصلية التي تعهد بها وقبلها القيصر والبويار لحظة انتخاب نيكون بطريركاً، وبناءً على ذلك قام نيكون في ٢٠ تموز ١٦٥٨ بتسليم شارة البطريركية وغادر الى الدير الذي بناه لنفسه على بعد ٤٠ ميلاً الى الغرب من موسكو المعروف بالقدس الجديدة، وعلى الرغم من توقفه عن تأدية مهام البطريركية فإنه لم يتخل عن منصبه بشكل فعلي، وتبع ذلك ازمة متطاولة في الادارة، واستلم القيصر السيطرة الفعلية مؤقتاً على الإدارة الكنسية بمعاونة اعلى القساوسة مقاماً ومركزاً. لكن التصدع بالعلاقة بين القيصر ونيكون لم يؤثر في موقف القيصر المبدئي تجاه اصلاح الكنيسة، وعلى الرغم من خروج نيكون فإن الكنيسة ظلت نيكونية، ومن جهة اخرى، لما كان الإمبراطور الكسي يميل الى الاعتدال اكثر من نيكون فقد الغى بعض اجراءات نيكون العقابية تجاه قادة الطقوس القديمة، وفي عام ١٦٦٤ سُمح لـ افاكوم بالعودة الى موسكو، وشعوراً بالمرارة لنفيه، وابتهاجاً بسقوط البطريرك رفض افاكوم ان تُعطى اي امتيازات للكنيسة الرسمية، وإلا لن تتم اي تسوية أو توفيق بين المجموعتين الكنستين، وفي غضون ذلك انعقد المجلس الكنسي الاعلى في موسكو عام ١٦٦٦ شارك فيه بطاركة الكنائس الشرقية، اثنتان من هذه الكنائس حضر البطريرك شخصياً وهما الاسكندرية وانطاكية، اما الكنيستان الاخريان فقد حضر مندوبان عنهما وهما القسطنطينية والقدس، وكان امام المجلس قضيتان رئيستان في جدول الاعمال: النظر في تخلي نيكون عن البطريركية، واصدار قرار حول اصلاح الكنيسة، وتم التصويت بالأجماع على انزال نيكون الى راهب، وأُمر بالانصراف الى دير بعيد شمال روسيا، وهكذا اصبحت البطريركية شاغرة وتم ترسيم بطريرك جديد، ولم يتم تحرير نيكون الا في عام ١٦٨١ حيث سُمح له بالعودة الى دير القدس الجديدة لكنه مات في الطريق، ومع ان المجلس قد حكم على نيكون لكنه دعم اصلاحاته الكنسية، فضلاً عن ذلك، تم حرمان الانقساميين، وبهذا العمل وضع نهاية للانشقاق داخل الكنيسة الروسية[١١١].

٥. **عهد الاضطهاد الديني:** بناءً على قرارات المجلس الاعلى شرعت كل من الكنيسة والسلطة المدنية في روسيا في سياسة قمعية ضد انصار الطقوس القديمة، وحُكم على قادتهم بالموت، وأُحرق افاكوم على

خازوق عام ١٦٨١، وعندما رفض رهبان دير سولوفكي في احد جزر البحر المتوسط قبول الطقوس الجديدة تم تسيير كتائب عسكرية ضدهم، ولم تستطع القوات الحكومية من انهاء مقاومة الرهبان الا بعد ثمان سنوات من الحصار ١٦٦٨-١٦٧٦؛ وساد الاعتقاد لدى الكثيرين من اتباع الطقوس القديمة ان نهاية العالم قد حانت، وان المسيح الدجال على وشك الظهور، واصيب بعضهم بحالات هستيرية بسبب السخط والغضب من الاضطهاد والمضايقة، وفضلوا الموت على الاستسلام، وبحلول عام ١٦٧٥ انتشرت موجة احراق انصار الطقوس القديمة انفسهم، إذ قيّد المئات منهم انفسهم مع قادتهم الروحيين في حظائر خشبية واشعلوا النار في المباني، وقد قُدر عدد الضحايا بأكثر من ٢٠,٠٠٠ شخص رموا بأنفسهم الى النار طوعاً، وبحلول عام ١٧٠٠ خمدت موجة الانتحار الهستيري، وبعد ذلك لم تسجل سوى حالات قليلة؛ إلا انها استمرت على امتداد القرن الثامن عشر، ولم تتوقف نهائياً إلا في عهد القيصر كاترين الثانية[١١٢].

رابعاً: انهيار سلطة الكنيسة-من بطرس الكبير حتى الحكم البلشفي.

شهدت علاقة السلطة القيصرية بالكنيسة تغيرات في عهد بطرس الاكبر(١٦٨٢-١٧٥٢م)، اذ لم يكن بطرس ايمانه روسياً تقليدياً، فقد كان متأثراً بشدة بالحركة اللوثرية، فاعتقد ان الكنيسة الروسية يجب ان يعاد تنظيمها على النموذج الاوروبي، وعلى المبدأ الاوروبي الرئيس ان دين الحاكم هو دين الدولة. وتحت تأثير اللوثرية، والرغبة في منع امكانية اي نيكون جديد فقد وصل بطرس الى نتيجة مؤداها ان الكنيسة المستقلة ضارة، وان من الواجب اخضاعها الى سلطة مدنية، وعند وفاة البطريرك ادريان عام ١٧٠٠م رفض بطرس السماح بانتخاب بطريرك جديد، وقد ظل الكرسي البطريركي شاغراً ثم لم يلبث ان أُلغي. وفي صدد إعادة تنظيم الافرع العليا للإدارة الكنسية خلال النصف الثاني من حكمه انشأ بطرس مجموعة اكليركية لإدارة الكنيسة الروسية شبيهاً بإدارة الكنيسة البروتستانتية، فأحيلت ادارة الكنيسة الى اللجنة الروحية أو الهيئة الدينية وهي الهيئة التي اعيد تسميتها باسم المجمع الكنسي المقدس ويُعرف باسم الـ سينودوس، وهكذا اصبحت الهيئة العليا لإدارة الكنيسة مؤسسة بيروقراطية مكونة من ممثلي رجال الدين من كبار الاحبار تخضع للإمبراطور؛ وقد مُنحت الوظائف المهمة في الهيئة الكنسية الجديدة الى انصار اصلاحات بطرس مثل رئيس الاساقفة ثيوفان بروكوفيتش الذي صاغ القانون الروحي الذي حدد نشاط الـ سيندوس المقدس؛ وكان المجمع المقدس يعاقب جميع الكفرة، حسب وصف الكنيسة، بقسوة كبيرة ويبث الديانة المسيحية بالقوة بين الشعوب غير الروسية ويقوم بالرقابة على المطبوعات. وكان يُشرف على نشاط المجمع المقدس نفسه الوكيل الأعلى للـ سينودوس المقدس، وهو موظف مدني يعينه القيصر لهذه الوظيفة؛ ثم قام بطرس بتحديد عدد اعضاء الاكليروس، ومرر العديد من القوانين لإخضاع النظام الرهباني، إذ ضيّق بطرس الاول من املاك الكنيسة، إذ أمر بإدارة املاك الكنائس والأديرة كلها، وانتقلت ادارتها في عهده الى الدولة، وكان القيصر يتصرف بتسلط بعقارات الكنائس والاديرة وارداتها ويستخدمها لسد احتياجات الدولة، واثارت كل هذه الاجراءات تذمر رؤساء الكنيسة الذين قاوموها مقاومة عنيفة؛ فقد احتج الميتروپوليتان ستيڤان ياڤورسكي الذي كان يشغل منصب البطريرك قبل تشكيل المجمع المقدس، وكذلك انصاره على تدخل القيصر في شؤون الكنيسة؛ لذا أمر بطرس بتحويل جزء من الاديرة الى ملاجئ للجنود المسنين والمتقاعدين، وقد فعل القيصر ذلك لأن رجال الدين الارثوذكس ولاسيما الرهبان منهم قاموا كل الاصلاحات الجديدة التي ادخلها؛ ولكي يخضع رجال الدين ذوي الرداءات السود(الرهبان) للسلطة القيصرية بصورة أقوى منع القيصر ترهب الناس الذين يقل اعمارهم عن ٣٠ عاماً، وكذلك الفلاحين الاقنان؛ اما الرهبان الهاربون فقد أمر: "بتقييدهم بالسلاسل وتشغيلهم في الاديرة حتى الموت"؛ كما أوجب بطرس الاول على جميع القساوسة بأن يقرئوا المواعظ والنصائح في الكنائس لتبصير الفلاحين وبأن يعلموا الاطفال الصلاة لكي يتربوا على مخافة الله واطاعة القيصر[١١٣].

اخذت الكنيسة الروسية، التي كانت تلعب دوراً رئيساً في الحياة الروسية قبل عصر بطرس الكبير تفقد اهميتها تدريجياً، ولم تكن الدوائر العليا في المجتمع والواقعة تحت التأثير الاوروبي بحاجة كبيرة الى الكنيسة او تضع لها قيمة، ومن دون شك فقدت الكنيسة كذلك مكانتها بوصفها مصدراً رئيساً للحياة الثقافية، وفي القرن الثامن عشر كانت الطبقات الرسمية، والارستقراطية في المجتمع الروسي قد تأثرت

بروح التنوير الفرنسي، وكانت تكن احتراماً لـ ڤولتير، ولم يكن هناك احتراماً حقيقياً للكنيسة. وفيما يتعلق بقطاع كبير من الطبقات الدنيا، فقد فقدت الكنيسة أيضاً معناها الاصيل، وقد تبع انشقاق المتعلقين بالطقوس القديمة في القرن السابع عشر الى ان نصف السكان في بعض مقاطعات شمال روسيا قد انصرفت عن الكنيسة، وهكذا، فقدت الكنيسة الارثوذكسية في القرن الثامن عشر دعم قسم كبير من طبقة النبلاء، وجزءً لا بأس به من طبقتي التجار والفلاحين؛ وفي القرن الثامن عشر أوقفت الحكومة تقريباً تعظيم الكنيسة كونها سلطة اخلاقية سواءً فيما يخص نشاطاتها، أو بوصفها قوة في المجتمع، وعدت عُنصراً اساسياً في التربية الاخلاقية لدى الطبقات الدنيا ليس إلا[١١٤]، وهي خطوة بدأت منذ عهد بطرس الكبير.

في حدود عام ١٧٤٠ ظهرت طائفة مسيحية قرب خاركوف عُرفت باسم دكوبور(Dokhobors)ويعني اسمها محاربو الروح، وقد اطلقه عليهم الكنيسة الارثوذكسية عام ١٧٨٥ الذين زعموا انهم يحاربون الروح القدس، ولا يُعرف اسم هذه الطائفة قبل هذا الاسم، وقد نشأت هذه الطائفة بين مجموعة من الفلاحين الروس في جنوب روسيا، وقامت على اسس من التعاليم الشفوية اصلها غامض، ويبدو ان تعاليم هذه الطائفة مشتقة جزئياً على الاقل من عدد من الهراطقة العائدين للقرن السابع عشر ومنهم دانيلو فيليبوڤ(Danilo Filipov)، الذي انشق بشكل جذري عن الكنيسة الارثوذكسية، وقد طُرد هذا من الكنيسة لأنه عد الله يسكن في كل انسان وليس في الكنيسة؛ وقد رفضت الطائفة الكتاب المقدس واستبدلته بمزامير منقولة شفاهياً والتي اطلقوا عليها اسم كتاب الاحياء، يتم انشاده في التجمعات الدينية. والقرارات في هذه الطائفة يتم اتخاذها بشكل جماعي في اجتماعات عامة، ولا تستخدم طائفة الـ محاربي الروح اي رموز دينية باستثناء الخبز والملح والماء، والتي تمثل العناصر التي تحافظ على الحياة، وتتضح العلاقة بين الثالوث كما يعتقد محاربو الروح بالشكل التالي: الذاكرة/ الاب، العقل/الابن، الارادة/الروح القدس، ويؤمنون بالتقمص وخلود الروح. وتُبجل طائفة محاربو الروح قادتها المختارين، الذين يعدون ملهمين بشكل خاص من الله، لكن بشكل عام يؤمنون بأن الناس متساوون لأن الجميع لديهم الله في داخلهم، وشعارهم هو: "الكدح والحياة السليمة". في اواخر القرن الثامن عشر تعرض انصار هذه الطائفة الى الاضطهاد من قبل السلطة والكنيسة على حد سواء[١١٥].

يمثل عهد القيصر كاترين الثانية(١٧٦٢-١٧٩٦م) ذروة سيطرة السلطة القيصرية على السلطة الكنسية والتي وضعت رجال الدين تحت سيطرة الدولة تماماً، وفي حديثها إليهم اخبرتهم القيصر قائلة: "ان مهمتكم هي إدارة الكنائس، وإقامة الأسرار المقدسة، والكرازة بكلمة الإله، والدفاع عن الدين، وإقامة الصلوات، والالتزام بالعفة، فأنتم خلفاء الرسل الذين أمرهم الله بحث الناس على احتقار ثروات الدنيا، وهم انفسهم كانوا فقراء جداً، فمملكتكم لم تكن من هذا العالم، أتفهمونني؟ لقد سمعت هذه الحقيقة من افواهكم، فكيف تتجاسرون، من غير ان تنتهكوا سمو مكانتكم، امتلاك ثروات لا حصر لها، وأملاك لا حدود لها تجعلكم على مستوى الملوك؟ انتم متنورون، ومكرسون، ولا تستطيعون الا تروا ان هذه الثروات كلها قد نُهبت من الدولة، واذا ما كنتم تحترمون القانون، وكنتم من رعاياي المخلصين، فإنه ينبغي عليكم الا تتأخروا دقيقة واحدة عن اعادة كل ما استحوذتم عليه بطرق غير شرعية، الى الدولة"[١١٦]. ونتيجة لذلك فقد صودرت اراضي الكنيسة من قبل القيصر كاترين الثانية عام ١٧٦٤، وكان كبير الاساقفة روستوڤ(ارسيني ميتزوفيتش) الذي احتج ضد هذا الاجراء قد جُرد من منصبه، وسُجن في إحدى القلاع حتى مات، وفي الوقت نفسه أغلق عدد كبير من الاديرة[١١٧].

غدا القيصر نتيجة سياسة كاترين الثانية هو الذي يدير شؤون الكنيسة الارثوذكسية الروسية عملياً، اي ان الكنيسة كانت كنيسة حكومية داخل الأراضي الروسية، ولذلك عُد الارتداد عنها جريمة جنائية، وكان يتبع الكنيسة شبكة من المدارس المحلية والمعاهد الاسقفية، كما كان اللاهوت الارثوذكسي يُدرس في المعاهد التعليمية العليا، وكانت هناك اعداد كبيرة من القيادات الروحية في الجيش والاسطول؛ كما ادارت الكنيسة نشاطاً تبشيرياً مكثفاً لتحويل مسلمي الامبراطورية الروسية، والبوذيين، واليهود، الى المسيحية الارثوذكسية[١١٨].

خلال القرن الثامن عشر فقدت حركة انصار الطقوس القديمة وحدتها، وتمزقت الى فرق عديدة ومستقلة، وان انهيار الكنيسة القديمة اجبر انصار الطقوس القديمة على السير في طرق اكثر ابتداعاً، بعد ان كانوا قد احتجوا بوصفهم مدافعين عن هذه الطقوس ضد اجراءات نيكون؛ وهكذا اصبح من الضروري البحث عن وسائل جديدة لاختيار القساوسة؛ ففي الكنيسة الارثوذكسية الاغريقية كان الاسقف وحده الذي يُرسّم القساوسة الجدد، وان هذا القسيس لا يستطيع نقل وظيفته الى شخص اخر. ولكن لم يكن هناك اساقفة متعلقين بأنصار الطقوس القديمة؛ اما القساوسة الذين تم ترسيمهم قبل الانشقاق، فقد طال بهم العمر مع الايام، واصبحوا على وشك الموت، ولم يكن هناك من سبيل لضمان ترسيم آخرين جدد، وهكذا واجه انصار الطقوس القديمة امكانية البقاء من دون قساوسة، وهذه المسألة برزت موضوعاً اساسياً في الخلاف بين القسمين الرئيسين لأنصار الطقوس القديمة، فأحدهما قرر ان يبقى من دون قساوسة، وهذا في آخر الامر، جعل تنظيمه اشبه بما هو في الكنيسة البروتستانتية؛ اما القسم الثاني الآخر، فبحث عن اسقف من خارج روسيا، واخيراً في القرن التاسع عشر، نجح هذا القسم في الحصول على اسقف رُسّم وراء حدود الامبراطورية الروسية في بوكوفينا التي شكلت فيما بعد جزءً من النمسا[١١٩].

ان انقسام انصار الطقوس القديمة الى مجموعات صغيرة في نهاية الأمر كان من اسباب ضعف المعارضة الكنسية الروسية، والسبب الآخر هو النمو السريع للطوائف المختلفة، وكان اقدمها الخليستي اي المُتسّوطين، وهم جماعة دينية من طقوسها الغريبة ان ينهمك اتباعها في ضرب انفسهم، أو غيرهم بالسوط، ويعتقدون ان ذلك تقرباً الى الله، وقد اخذت شكلاً محدداً في نهاية القرن السابع عشر، وكان الخليستي(Khlysty) متصوفين يعتقدون بإمكانية التجسد المستمر، والمتكرر لله في الانسان، وقد رفضوا الكنيسة الرسمية، ومؤسساتها، وانكروا ايضاً الزواج، رتبوا حفلات سرية حاولوا فيها استحضار الروح القدس عن طريق الرقص المنتشي، وهذه الحفلات انتهت في بعض الاحيان الى الانغماس المفرط في لهو معربد، وكان غريغوري راسبوتين الذي لعب دور تراجيدي في نهاية العهد الامبراطوري الروسي منضماً الى الخليستي في شبابه. وفي الطرف الاخر وابتغاء التحرر من احلك مظاهر الخليستي كانت مسيحية الدخابرة(Dukhobor) الروحية التي برزت في منتصف في القرن الثامن عشر في وسط روسيا وجنوبها، وفي الربع الاخير من هذا القرن ظهرت وسط المسيحيين الروحيين في مقاطعة تامبوف فرقة المسيحيين الانجليين الذين لقبوا بالمولوكين(Molokane) اي شاربي الحليب خلال الصوم، وهو الامر المحرم وفق قواعد الكنيسة الارثوذكسية. وقبل حلول القرن التاسع عشر استطاع انصار الطقوس القديمة وغيرهم من الفرق المسيحية تحويل العديد من التجار والفلاحين لعقيدتهم، وفي عهد الكسندر الاول(١٨٠١-١٨٢٥) نفذ الخليستي على وجه الخوص الى الدوائر العليا في المجتمع، وتم تنظيم فروع الخليستي في عصر هذا القيصر على يد الجماعات الراقية في مجتمع سان بطرسبيرغ[١٢٠].

خلال القرن الثامن عشر أخضع كل المنشقين عن الكنيسة الى القمع والاضطهاد المتواصل من جانب الحكومة؛ اذ حُكم على قادة الدخابرة في جنوب روسيا بالموت حرقاً أواخر عام ١٧٩٢، غير ان كاترين الثانية استبدلت حكم الموت بالنفي الى سيبيريا، وشرعت الحكومة في اتخاذ سياسة اكثر تسامحاً تجاه انصار الطقوس القديمة، لكن قمع افراد الطوائف الاخرى لم ينته إلا مطلع القرن التاسع عشر في عهد الكسندر الاول بناء على نصيحة عضو مجلس الشيوخ ايڤان لوبرخين الذي اجرى تحقيقاً في واحدة من الحكومات الجنوبية عام ١٨٠١. وفي ظل حكم القيصر الكسندر الأول انتهاء عهد الاضطهاد لطائفة محاربو الروح، وفي عام ١٨٠٢ تم تجميع الـ دوكوبور في مستوطنات في شبه جزيرة القرم التي كانت آنذاك منطقة حدودية. وفي عهد نيقولا الاول(١٨٢٥-١٨٥٥) بدأ التراجع، وعادت الحكومة مرة الى سياسة قمع الانشقاق الديني، وقد قُدر مجموع انصار الطقوس القديمة وافراد الطوائف المسيحية الذين تعرضوا للقمع بحلول عام ١٨٥٠ حوالي ٩,٠٠٠,٠٠٠ شخص؛ كما شمل الاضطهاد الديني طائفة الـ دوكوبور[١٢١].

خلال القرن التاسع عشر اخذت التعاليم البروتستانتية بالانتشار والتي كانت تنكر العقيدة المعقدة، وطقوس الكنيسة الارثوذكسية؛ كما برزت في جنوب روسيا حركة ستوندو المعمدانية[١٢٢]، وقد ظهرت

في النصف الاول من القرن التاسع عشر، وانتشرت انتشاراً واسعاً في النصف الثاني، وفي سبعينيات القرن التاسع عشر وقع اتباعها تحت تأثير تعاليم المعمدانية القادمة من باسارابيا ومن وراء القوقاز، وفي نهاية القرن، انتشرت المعمدانية في اكثر من ٣٠ مقاطعة روسية. وقد حاولت الحكومة وضع حد لهذه الحركة عن طريق اجراءات بوليسية، وفي عام ١٨٩٤ عُدت الطائفة: "ضارة الى حد بعيد"، وحُظر عليها حق التجمع، ومن الطبيعي ان تكون النتيجة ازدياد نمو الحركة[١٢٣].

ان الكنيسة على الرغم من انهيار سلطتها الاخلاقية في القرن التاسع عشر فإنها ظلت حية قادرة على تقديم توجيه ديني لأتباعها، وكان دليل على استمرار حيويتها حتى في معظم فترة موتها في القرن الثامن عشر، فقد برز رجل كبير داخلها مثل الاسقف تيخون زادونسكي الذي كان من اوائل الروس الذين رفعوا صوتهم ضد القنانة. وفي القرن التاسع عشر قدمت الكنيسة عدداً من الزعماء البارزين الذين مارسوا نفوذاً كبيراً على الافراد سواءً في الطبقات العليا ام الدنيا خلال نقائهم الاخلاقي، وهؤلاء الزعماء كانوا رجال دين من ذوي السلوك الصارم، ويأتي إليهم المؤمنون من اجل النصيحة، والاستشارة في مشاكلهم العملية والروحية، وكان الزعيم من هؤلاء يُسّخر نفسه لكل انسان مهما كان وضعه الاجتماعي، وقد لقى قادة دير اوبتتينا بوستين تقديراً واحتراماً خاصين. من جانب اخر لم تتغير السياسة القيصرية والكنسية تجاه المنشقين إلا بعد قيام ثورة ١٩٠٥، عندم صدر بيان يسمح بالحرية الدينية، وخلال هذا الوقت، كان في روسيا اكثر من ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ من المنشقين من بينهم انصار الطقوس القديمة والمعمدانيين وغيرهم. ويمكن ان نلاحظ ان بيان عام ١٩٠٥ بداية الحرية الدينية ليس للمنشقين فحسب بل للكنيسة الارثوذكسية نفسها؛ فخلال المدة التي سبقت الحرب العالمية الاولى حدث هيجان داخلي هائل في الكنيسة الارثوذكسية؛ وحوالي عام ١٩٠٠ طرح بعض افراد الكنيسة الارثوذكسية مسألة دعوة المجلس الكنسي لضمان حرية الكنيسة من وصاية الدولة، وتنفيذ اصلاحات داخلية في مؤسساتها، واحدى الاصلاحات الداخلية الرئيسة التي بُحثت كان حق المجتمع الديني في الحكم الذاتي لكنيستهم، ذلك الحق الذي كان له في الفترة التي سبقت بطرس الاكبر، ونتيجة لسياسة بطرس الكنسية اصبح المجمع الكنسي مقتصراً على قسم من الناس من الناس يعيشون في منطقة معينة مجاورة للكنيسة، ولا يملكون حق الحكم الذاتي في الشؤون الكنيسة؛ واقترح ايضا وجوب عودة منصب البطريرك الذي الغاه بطرس، غير ان المجلس لم تتم دعوته الا قبل ثورة ١٩١٧، وطوال تلك المدة استمرت الكنيسة تحت الوصاية الرسمية للحكومة من خلال الـ سيندوس المقدس[١٢٤].

- **بقاء بعض المعتقدات الوثنية القديمة في المجتمع الروسي.**

رغم دخول المسيحية الى روسيا فإن دلائل يمكن ان تقدم هنا عن بقاء بعض الطقوس الوثنية في المجتمع الروسي خلال العصور الوسطى والحديثة مما يشير الى بقاءها في الموروث الشعبي، وبما ان الدراسة هذه لن تتمكن من تغطية كافة هذه الجوانب الواسعة، فسيتم هناك ذكر نماذج قليلة فقط على امل تغطيتها في دراسات لاحقة، ويمكن ان نقسمها الى قسمين وهما:

اولاً: الطقوس الشامانية في سيبيريا[١٢٥]..

ان الشامانية بالمعنى الدقيق هي اولاً وقبل كل شيء ظاهرة من الظواهر الدينية في سيبيريا وآسيا الوسطى(انظر خارطة رقم ٢)، فهي ليست ديانة، بل هي شبكة من الطقوس والمعتقدات المختلفة التي تحيط بنشاطات الشامان المرتبط بأنظمة دينية شديدة الاختلاف[١٢٦].



(خارطة رقم ٢: موقع سيبيريا)

١. **اصل كلمة الشامانية:**

من الصعب حالياً الحديث عن اصل الشامانية، وكلمة شامان(Shaman) وصلت من المصادر الروسية من الكلمة التونغوزية[١٢٧]شامان(Šaman) أو خامان(Xaman)؛ ولكن يمكن ان نلاحظ انها لم تكن هي التسمية الوحيدة فقد كان الشامان في قبيلة كازاك كيركيز في سيبيريا يدعى الباكسا[١٢٨]. وقد قُدمت في القرن التاسع عشر نظرية تقول بأن كلمة الشامان مستمدة من الكلمة البالية[١٢٩]سامانا(Samana) وهي بالسنسكريتية سرامانا(Sramana)، وفي الصينية شا-مين(Sha-Men). وعلى الرغم من ان هذه النظرية قد دُحضت فإن الأسس التاريخية-الثقافية للشامانية قد جرى البحث عنها في البوذية أو غيرها من الموروثات الكبيرة ذات الكتب المقدسة في الشرق؛ وفي الحقيقة انه كان للديانة اللامائية في هضبة التبت تأثير مهم في نشوء الشامانية عند شعب الافنكي(Evenki) مثلاً وهو شعب من الشعوب التنغوزية، وعند المغول، والبوريات. لكن بشكل عام كان الانتشار الواسع لظاهرة الشامانية، واستيطان بعض افكارها الاساسية مثل: طيران الروح، والمثنوية الروحية، وشدة الحفاوة بالصلة بالحيوان في منطقة القطب الشمالي وجنوبها، يدعم، على اي حال، الرأي القائل بأن جذور الشامانية تكمن في ثقافات الصيد في العهد الاول من العصر الحجري القديم؛ ويرى عالم الاديان مرتشيا الياده، ان افكار التجربة الوجدية وطيران الروح، يؤكد ان الشامانية قد نشأت من ميراث العهد الاول من العصر الحجري القديم واخصبتها البوذية واللامائية، فضلاً عن التأثيرات الاسيوية الشرقية والجنوبية الاقدم[١٣٠].ويرى الأستاذ كون ان الشامان هو أول اختصاصي بين البشر، وكانت حرفته أقدم الحرف الإنسانية؛ وليس هناك أدنى شك في ان الشامان قد وجد في عصر البلايستوسين المتأخر في العصر الحجري القديم[١٣١]؛ فالشامانيين كما يرى الياده يمثلون التجربة الروحية الأكثر ثراء والأصح تعبيراً عن الإنسانية في مرحلتها البدائية[١٣٢].

٢. **اهمية الشامانية والشامان في المجتمعات السيبيرية.**

تشغل الشامانية اهمية خاصة في المجتمعات السيبيرية، ويمكن ان نلاحظ ان مكانة الشامان واهميته تختلف حسب نمط المجتمع الذي يعيش فيه وطبيعته الاقتصادية، إذ وفرت جماعات الصيد وصيد السمك الصغيرة في سيبيريا الشمالية مكاناً للشامانية يختلف تمام الاختلاف عن مكانها في الثقافات الزراعية في آسيا الوسطى المستقرة في بيئة واحدة. وتعتمد مكانة الشامان في الجماعة ومهماته على السواء على الطبيعة الثقافية للمنطقة، واقتصادها، وطبيعة بنيتها الاجتماعية وممارستها الدينية، كما هو الحال في الشامانية في الجماعات الكبيرة، مثل تلك التي تقطن في سيبيريا الشمالية الشرقية، ويمكن ان نقدم امثلة حول ذلك، فمثلاً حافظ شعبا اليوكاجير(Yukagir) والافنكي(Evenki) على نظام العشيرة عندهما حتى ازمان متأخرة نسبياً، وشاماناتهما شديدي الارتباط بتنظيم العشيرة. وكان اليوكاجير، وهم شعب قبلي سيبيري، يعيش حتى نهاية القرن التاسع عشر على صيد الظباء، وتربية الايائل، وقد اخذ تربية الايائل واستوعبها من الافنكي. وكان السكان، الذين يتألفون من بقايا عشائر كانت في السابق اكبر عدداً، يعيشون في خيام الأسر ذات القربى وقراها. وكان الشامان، الذي عليه ان يكون مرتبطاً بالعشيرة بروابط الدم، هو احد زعماء العشيرة ويعمل بوصفه راعياً عاماً لها؛ وكانت مهنته الرئيسة هي المحافظة على الصلة بين اعضاء العشيرة الاحياء والموتى، وان ينظم ممارسة الشامانية المرتبطة بطقوس الصيد حسب اوقاتها في التقويم لديهم. وفي اثناء هذه الطقوس كان من شأن الشامان ان يستعيد ارواح الحيوانات لتُصاد من حارس النوع الحيواني في مستودع العالم الآخر؛ كما كان يساعد افراد العشيرة بمعالجة الأمراض، والعقم، وبالنبوءة، وبمنع البلاء الذي تهدد به الأرواح. وكان نظام العشيرة المتقدم كثيراً موجوداً عند شعب الافنكي، الذين انتشروا في مساحة شاسعة، وانقسموا الى فئات مهنية مختلفة هي: الصيادون، وصيادو السمك، ومربو الايائل، والصيادون الذين يربون الخيل والماشية. وكانت وحدتهم الاجتماعية الرئيسة هي العشيرة، التي لها منطقتها، وتنضوي العشائر بالتالي الى قبائل اكبر، وكان الشامان هو احد زعماء العشيرة. وقد حظي الشامان بأهمية خاصة، فمثلاً كان يُعتقد ان شعر الشامان لا يمكن ان يُقص لأنه محل الإقامة لأرواح اعضاء العشيرة في منطقة پودكامنيا تونغوسكا(Podkamennia Tonguska)؛ وكان شامانهم، بوصفه حامي العشيرة وزعيمها، عليه ان يقيم ماريليا(Marylya) وهو سياج مصنوع من الأرواح حول اراضي العشيرة؛ وهو فضلاً عن ذلك كان يمتلك المعرفة بنهر العشيرة الاسطوري المؤدي الى العالم الآخر. وكان شامان العشيرة يعقد الجلسات الروحية، ويمارس الشامانية من اجل طقوس الصيد. وفي نهاية القرن التاسع عشر كان يوجد كذلك شامانات محترفون من دأبهم ممارسة الطقوس الشامانية لمصلحة اعضاء عشيرة اخرى مقابل الأجر، ولكن لم يكن هؤلاء الشامانات الزائفون يحظون بمكانة شامان العشيرة المكرمة والمهمة. في حين كان الشامانات في الجماعات الصغيرة بين صيادي سيبيريا الشمالية والشمالية الغربية علاقة بمجتمعهم تضاهي علاقة شامان العشيرة بمجتمعه، فعلى سبيل المثال، كان النغاسانيين(Nagasani) وهم شعب ساموييدي(Samoyedic Peoples) [١٣٣]، منتشرين في منطقة بلغت من الاتساع الى درجة انه لم يكن للعشيرة فيها اهمية بوصفها وحدة اقتصادية أو محلية؛ ولكن حافظت على اهميتها على الأغلب في المناسبات الدينية حسب، كما هو الأمر في الشعائر الدينية. وفي مناسبات مثل مهرجان الخيمة الطاهرة الذي يقيمه النغاسانيون، ويجري في شهر شباط عندما تبدأ الشمس في الشروق مجدداً، يظهر الشامان مرتبطاً فقط بجماعته الصغيرة، اي جماعة الخيمة أو القرية التي يساعد اعضاءها بوصفه شافياً؛ وجالباً النجاح في الصيد؛ وحارساً الولادات العسيرة[١٣٤].

لم تكن العلاقة بين شامان الشمال والمجتمع تشابه تلك العلاقة في سيبيريا الشمالية الشرقية، فمثلاً كان شعبا التشوكتشي(Chukchi) والكورياك(Koriak)، وهما شعبان قبليان صغيران موطنهما الاصلي في سيبيريا، لديهما فئتين من المهن ويتفاعل احدهما مع الآخر تفاعلاً وثيقاً وهما: مربو الايائل وصيادو ثديات البحر. ولم تُظهر الفئتان علامات على نظام عشيرة واضح، فوحدتهما الاجتماعية الاساسية تقوم على جماعات الصيد ومخيمات البدو الرحل التي تؤلف الاقارب والجيران. واحد ملامح الشامانية النموذجية هنا هو الشامانية العائلية؛ وفي هذا النمط من الشامانية، الذي لا يمكن ان يُعد شامانية بالمعنى الصحيح، يستطيع اي انسان يحضر المهرجان ان يقرع الطبل ويرقص بطريقة الشامان. وبما

ان الطقوس المهنية(مثل الطقوس المرتبطة بالصيد) والطقوس المهمة الأخرى لم تكن تنجز بين الاسرة أو الاقرباء، لذا لم يكن الشامان مرتبطاً بأية زمرة واضحة التحديد في المجتمع، لكنه مع ذلك كان شافياً، وحالاً للأزمات الطارئة المتعددة[١٣٥].

اما بالنسبة للبدو والمزارعين الذين يعيشون في سيبيريا الجنوبية وآسيا الوسطى مثل قبائل الياقوت[١٣٦]، والبوريات، والتوفين، والالطائيين الجنوبيين، والخكاسي، واڤينكي ترانسبايكاليا الذين يربون الخيول، ونتيجة لارتفاع مقام المنطقة الى مستوى الوحدة الادارية فوق مستوى العشيرة قد وفر خلفية للشامانية اختلفت عن خلفية جماعات الصيد الشمالية. وتحت تأثير اللامائية والبوذية في الجنوب، تطورت السمات الطقسية للشامانية والمعتقدات المتعلقة بالعالم ما فوق الطبيعي بشكل اشد ثراءً وتعقيداً من الشامانية في الشمال؛ فبينما يكون الاتصال بالعشيرة مهماً في الشامانية الشمالية الشرقية، فإن العوامل الاقليمية هي التي تحدد في اكثر الاحيان مجال نشاطات الشامان في سيبيريا الجنوبية؛ وبما ان صيرورة المرء شاماناً ومروره تحت المأثور الشاماني يخضعان للسيطرة لصارمة من الشامانات الاكبر سناً، فمن الواضح ان للشامانية في الجنوب اشكالاً مؤسسية اكثر مما لها في الشمال. والشامان، فضلاً عن عمله شافياً وعرافاً، يمكن ان يقوم كذلك في الجنوب بدور الكاهن مقدم القرابين؛ وان الممارسات التي هي من قبيل اضحية الحصان التي يقدمها التتار الالطائيون الى الإله في السماء تعتمد على قدرة الشامان على اصطحاب روح الحيوان المضحى به الى العالم الآخر[١٣٧].

فضلاً عن الفوارق الرئيسية في مكانة الشامانية بأجمعها، يختلف الشامانات في طبيعتهم ومنزلتهم من مجموعة قومية الى أخرى، وقد لاحظ الخبير المجري في الشامانية ڤيلموس ديوشغي في مقابلته مع شامانات التوفا(Tofa) في اواخر خمسينيات القرن العشرين انهم يندرجون في طبقات مختلفة وفقاً للعشيرة، والرمز اللونية لألبستهم، وسلطتهم، وبراعتهم، وفي نهاية الأمر صفاتهم الشخصية المميزة أيضاً. وان طبقات الشامانات التي تستخدمها المجموعات القومية المختلفة واضحة في الأسماء التي تُعطى لأنماط الشامانات، وعلى سبيل المثال، كان الشامان الأشد احتراماً عند الانتسي(Entsi) وهم شعب سامودي، هو البودتود(Budtode)، الذي له القدرة على الاتصال بالأرواح التي تعيش في السماء؛ والأقل شدة في الاحترام هو شامان الدئانو(D'ano) الذي في مقدوره ان يحمي البشر من الأرواح الشريرة؛ ويليه في الأهمية شامان الساوود(Sawode) الذي يستطيع الاتصال بالموتى. وبالطريقة نفيها كانت ادنى طبقات الشامات عند النانای(Nanai) هم السيورينكا(Siurinka)، اي الشامانات الذين يعالجون المرضى؛ وكان شامانات النيماتي(Nemati) القادرين على معالجة المرضى وعلى تأدية الممارسة الشامانية عند الاحتفال الأول بذكرى الميت على حد سواء؛ وكان من الشامانات الذين لهم المقام الاكبر شامانات الكاساتي(Kasati)، الذين كان لديهم قدرة في المعرفة الشامانية كلها واقتدار على اهم مهمة لشامان النانای، وهي مهمة اصطحاب ارواح الموتى الى العالم الآخر. وكان الياقوت وغيرهم من الشعوب الاطلائية يقسمون الشامانات الى سود وبيض ويشير ذلك الى طبيعة الارواح التي يتصل بها الشامان؛ وكان الأبيض هو لون السماء، والأسود لون الأرض. ووفقاً للموروث الشاماني، فإن طبيعة الشامان ومرتبته تحددها الأرواح التي ادخلته في مراسيم الشامانية، ومن المحتمل ان الملامح المميزة كانت لدى الممارسة هي البراعة والقدرة على تحقيق غيبوبة الدخول في الشامانية وطبيعة الموروث الذي استوعبه. وقد يرتفع الشامان كذلك الى طبقة أعلى بازدياد معرفته، وكثيراً ما كان الشامان العظيم يحمل نعت: "العتيق"[١٣٨].

٣. **كيفية اختيار الشامان:**

في التقاليد الشامانية يُصبح الشخص شاماناً عبر ثلاث طرق:

❖ الانتقال الوراثي للمهنة الشامانية: اذ كان الشامان يتم توريثه داخل الأسرة، ولاسيما في مناطق شامانية العشيرة وشامانية الجنوب الاحترافية، وقد لاحظ أ. ف. انيسيموف(A. F. Anisimov)، وهو خبير في الشامانية عند بودكامنيا تونغوسكا اڤنكي(Podkamnnia Tunguska Evenki) ان الشامانات يحاولون بتقصد ان يحافظوا على الشامانية داخل الأسرة؛ وفي الاقاليم الشمالية حيث كثيراً ما كان اختيار الشامان هو مسألة نداء عفوي من قبل الارواح، فإن تلك الأرواح التي يواجهها المبتدئ هي أرواح

الطبيعة على الاغلب، ومبدأ الوراثة داخل الأسرة هو انعكاس للفكرة القائلة بأن الأرواح التي تهيئ المبتدئ ليصبح شاماناً هي الشامانات الاسلاف أو ارواح الطبيعة التي تتولى المهمة عند التماس ارواح الاسلاف.

- الشعور العفوي بأن الشخص مدعو الى هذا العمل عن طريق النداء من قبل الأرواح أو الآلهة.
- ثمة حالة يصلح فيها الافراد شامانات نتيجة لإرادتهم الحرة أو بإرادة العشيرة، لكن اولئك الشامانات ذاتيي الصنع يُعدون اقل قوة من الذين ورثوا المهنة أو الذين اطاعوا نداء الآلهة أو الارواح؛ فالشاب لدى التشوكتشي(Chukchi) مثلاً يمكن ان يختار ان يصير شاماناً على أمل الحصول على الثراء والمقام؛ وعند الاڤنكي يمكن لأكبر العشيرة سناً اختيار طفل لتدريبه بوصفه شاماناً(١٣٩).

ويمكن ان نلاحظ ان الاضاحي كانت تقدم في طقوس اختيار الشامان، وهذا يتضح في ممارسات شعب الكيت في سيبيريا الذي يقوم بالتضحية بحيوان السنجاب الطائر من اجل اختيار الشامان، فبعد التضحية بالحيوان لمدة سبعة أيام ستظهر جثته ان كان المرشح شامانياً وإلا فلن تظهر(١٤٠).

لدى الكثير من القبائل السيبيرية، فإن الشاب الذي يُدعى الى ان يكون شاماناً يجذب الانتباه بسلوكه الغريب، أو مزاجه الشاذ، وهو أمر يُعرف بين المختصين بمصطلح: مرض الشامان، وفي كل انحاء سيبيريا وآسيا الوسطى كثيراً ما كان اختيار الشامان مسبوقاً بمرض الشامان، ويمكن ان تكون الأعراض الأولى هي فقدان التوازن العقلي، أو يصبح غائب الذهن، أو ظهور نوبات الهستيريا، أو ينشد الوحدة ويحب التجول على غير هدى في الغابات أو الأماكن المهجور، وينشد الاعتكاف، أو يرى رؤى نبوية أي رؤى غير عادية، أو سماع الأصوات غير المألوفة، أو يغني في نومه، أو ظهور آلام بدنية مبرحة. وفي العادة كان المرض يصيب الناس في سن المراهقة، ولكن المصابين وهم بالغون يمكن ان يصبحوا داخلين في الشامانية، فكثيراً ما كان من دأب الشامان الذي يُستدعى لمعالجة مصاب ما بهذه الاعراض ان يعلمه كيف يمارس الشامانية. وكان داء الشامان يُفسر بأنه نداء الأرواح ان يصبح شاماناً، وبما ان المهمة كانت بالغة الخطورة، يقول الشامانات انهم كانوا في اكثر الاحيان يقاومون النداء حتى النهاية(١٤١). ويمكن ان نقدم بعض الامثلة عن مسألة مرض الشامان، فعند شعب الياقوت ينتاب الشاب احياناً نوبات من الغضب العنيف فيفقد وعيه بسهوله، ويختفي في الغابة، ويلتحي بلحاء الشجر، ويرمي نفسه في الماء والنار، ويجرح نفسه بالسكاكين. ويعاني شامان المستقبل عند التونغوز، وهو يقترب من النضج، من ازمة هستيرية، ولكن نداءهم الداخلي يتجلى في سن مبكرة أحياناً، فيفر الصبي الى الجبال، ويظل فيها أسبوعاً أو اكثر يقتات على الحيوانات، التي يمزقها بأسنانه اشلاءً، ويعود الى القرية قذراً، مضرجاً بالدم، وثيابه ممزقة، وشعره اشعث، ولا يبدأ في الهذر في الكلمات المتفككة إلا بعد ان تمر عشرة ايام أو اكثر(١٤٢). وحتى في حال الشامانية الوراثية، فإن اختيار شامان المستقبل يسبقه تغير السلوك، فأرواح اسلاف الاسرة من الشامانات تختار شاباً من بين الاحفاد؛ فيصبح غائب الذهن ومغتماً، ويبتهج في الوحدة، وله رؤى نبوية، ويكابد نوبات تجعله فاقد الشعور. ويعتقد البوريات(Buriats) ان الأرواح تحمل في هذه الفترة روح الشاب بعيداً، وحين يستقبلها اسلافه الشامانات في قصر الآلهة، يعلمونها اسرار المهنة، وأشكال الآلهة، واسماءها، وعبادة الأرواح واسماءها؛ ولا تعود روح الشاب وتستأنف سيطرتها على جسدها إلا بعد هذا الدخول الأول في العضوية(١٤٣). ويمكن للرجل ان يصبح شاماناً بتتبعه حادثة عرضية أو حدثاً غير مألوف الى حد كبير، فمثلاً عن شعب البوريات، والسويوت(Soyot)، بعد ان يصيبه البرق، أو ان يسقط من شجرة غابة، أو بعد اجتيازه الناجح لتجربة قاسية يمكن ان تتماثل مع محنة الدخول في عضوية الشامانات.

٤. **طقوس العبور:**

مهما كانت الطريقة التي يتم بها اختيار الشامان، فلا يُعترف بأنه كذلك حتى يتلقى نوعين من التعليم:

- نوع وجدي(احلام، غيبوبات).
- نوع تقليدي(تقنيات شامانية، اسماء الأرواح ووظائفها، اساطير العشيرة وانسابها، اللغة السرية)(١٤٤).

كان بلوغ التمكن من التقليد الشاماني وتقنية طقس الوجد أو الغيبوبة يستدعي من المبتدئ تدريباً خاصاً، وتعتمد طبيعة الابتداء وطوله على وضع الشامان في جماعته، واهمية الشامانية في المجتمع،

ويختلف من منطقة الى أخرى طول مدة التلمذة، وكمية المأثور المستلهم وطبيعته، وتعليم الداخل في حقل الشامانية، وعدد طقوس الابتداء، والسيطرة على قدرات المبتدئ. وكان الملمحان المشتركان في كل المناطق هما:

- ❖ التقاء الشامان مع الأرواح وفوزه بالأرواح المساعدة حين يكون في حالة الوجد.
- ❖ اقرار المجتمع بأنه شامان جديد[١٤٥].

كان المبتدئ من اجل ان يُصبح شاماناً عليه ان يمر بعدة مراحل يمكن تلخيصها بما يلي:

- ❖ في أول مدة الابتداء ينعزل الشامان المبتدئ وحيداً، ويتعلم كيف يستخدم الطبل في نشدانه التجارب الوجدية، وينغمس في الموروث الشاماني؛ وكانت احدى مهامه الرئيسة هي تأليف اغنياته الشامانية؛ وكانت اغنيات مناداة الأرواح التي تُغنى في الجلسات الروحية لشامانات التشوكتشي مثلاً، هي نتاج مدة الابتداء. وفي الرؤية الشامانية(اثناء الغيبوبة)، فإن المبتدئ، من المفترض، ان تعلمه الأرواح؛ ولكن هناك اخبار عن اوضاع يُرشد الشامانات الأكبر سناً فيه المبتدئ في فن الشامانية.
- ❖ المرحلة التالية في مدة الابتداء هي مرحلة الرؤى وسماع الاصوات التي يجتاز فيها المبتدئ معرفته بالأرواح.
- ❖ لا يصبح شامان المستقبل شاماناً إلا بعد المرور بتجربة قاسية اثناء غيبوبته، وتُعد تجربة الدخول في الوجد وما يرافقها من رؤى خاصة بتقطيع اوصال الجسد وما يليها من تجديد الأعضاء ابرز مدخلاً الى عضوية الشامانات؛ ففي اثناء هذه التجارب يشعر المبتدئ ان الأرواح تدمر بالفعل شخصيته القديمة، اذ من المفترض انها تقوم بتقطيعه، وبعد ذلك تعيد تجميعه شاماناً جديداً، قادراً على رؤية ما هو خفي على الناس العاديين، ويمكن ان نلاحظ في التقاليد الشامانية تكرار موضوع الموت والولادة الجديدة؛ فعلى سبيل المثال، عند الساموديين يؤدي امساك الأرواح بعظام الشامان المبتدئ، وتقطيع جسده، واعادة تجميعها لهيكله العظمي دوراً مهماً في الرؤى التي تصور ولادة الشامان من جديد. يعلن الشامانات السيبيريون عادة بشكل تقليدي، من اجل اختيارهم شامانات، انهم يدخلون في حالة الوجد، ومن المفترض انهم اثناء ذلك يموتون ويستلقون فاقدي الحياة مدة تتراوح من ٣-٧ ايام في خيامهم أو اماكن انعزالهم؛ وفي غضون هذه المدة، تقطع الشياطين أو ارواح العالم الاسفل اجسادهم، وتُطهر عظامهم، ويُكشط لحمهم، ويُرمى بالكتل السائلة من الجسد بعيداً، وتُمزق عيونهم من اوقابها. ووفقاً لناقل معلومة من قبيلة الياقوت، فإن الارواح تحمل روح شامان المستقبل الى العالم الاسفل، وتُغلق عليه في احدى الدور مدة ثلاث سنوات، وهناك يجتاز تجربة دخول العضوية كي يُصبح شاماناً، فتبتر الأرواح رأسه، وتنحيه جانباً، لأن على الشامان المبتدئ ان يراقب تقطيع اوصاله بعينيه، وتقطع جسده إرباً، لتتقاسمه بعدئذ ارواح الامراض المتنوعة، ولن يفوز شامان المستقبل بسلطة الشفاء إلا في ظل هذا الشرط؛ عندئذ ستكتسي العظام لحماً جديداً، وفي بعض الأحوال يُعطى كذلك دماً جديداً. ووفقاً لناقل معلومة أخرى من الياقوت، فإن الشياطين السود تُقطع جسد شامان المستقبل، وتنثر القطع في الاتجاهات المختلفة بوصفها قرابين، ثم تطعن رأسه بالرمح، وتبتر حنكه. وقد أخبر احد الشامانات الساموديين اليوراك من سيبيريا احد الرحالة ويدعى تويڤو لهيتسالو(Toivo Lehitsalo) ان الأرواح هاجمته وقطعته إرباً، وبترت كذلك يديه، واستلقى سبعة ايام بلياليها على الأرض فاقد الشعور، في حين كانت روحه في السماء. ويخبر احد الشامانات من الساموديين الاڤام العالم الانثروبولوجي الكسندر پوپوف(Alexander Popov) احداث دخوله تجربة الشامانات، فقد ظل شامان المستقبل وهو مصاب بمرض الجدري فاقد الشعور ثلاثة ايام، شديد الدنو من الموت الى حد انه كاد يُدفن في اليوم الثالث، ورأى نفسه وهو ينزل الى الجحيم، وبعد مغامرات عدة حُمل الى جزيرة، انتصبت في وسطها شجرة بتولا، وصلت الى السماء، وكانت شجرة رب الأرض، الذي اعطاه غُصناً منها ليصنع لنفسه طبلاً(احد الرموز الشامانية). وبعدئذ جاء الى جبل، وباجتيازه ثُغرته التقى رجلاً عارياً يمارس النفخ بمنفاخ ذي مقبضين في نار كانت عليها قدر، وامسك به الرجل بكُلابة، وبتر رأسه، وقطّع جسده، ووضع القطع في القدر، وسلق الجسد فيها ثلاث سنين، واخيراً اخرج العظام التي كانت تعوم في النهر، ووضعها معاً، وكساها لحماً. وكان شامان المستقبل في اثناء مغامراته في العالم الآخر قد التقى عدة شخصيات شبه إلهية، بأشكال بشرية أو

حيوانية، وقد علمته كل شخصية منها اسرار فن الشامانية، وبوسعه الشروع في العمل الشاماني. ويروي شامان من التونغوز(Tunguz)، انه في اثناء مرض الدخول في الشامانية، غرز اسلافه الشامانات فيه النبال حتى فقد الوعي، وخرّ على الأرض؛ ثم بتروا لحمه، واخرجوا عظامه، وعددوها امامه؛ لو جرى اغفال واحدة منها، لما اصبح شاماناً. ووفقاً للبوريات فإن المرشح يعذبه الشامانات من اسلافه، الذين يضربونه، ويقطعون جسده بالسكين، ويطهون لحمه. وقد اصبحت امرأة من قبيلة التيلوت شامانة، بعد ان رأت رؤيا فيها رجال مجهولون يقطعون جسدها ويسلقون قطعه في قِدر؛ ووفقاً لتقاليد الشامانات الالطائيين، فإن ارواح اسلافهم تفتح بطونهم، وتأكل لحمهم، وتشرب دمهم

- بعد دخول الشامان في العضوية يظل عليه ان يُبرهن لجماعته عن قدراته، وهو يقوم بذلك عن طريق طقوس شامانية اختبارية متنوعة أو من خلال الطقوس العامة؛ وكان شامان الجماعة الصغيرة في سيبيريا الشمالية الغربية يكتسب هذه الخصائص تدريجياً في اثناء الطقوس السنوية؛ وكانت ملابسه واشياءه الطقسية يصنعها جيرانه واقرباؤه. وان الطقوس الاختبارية الكبيرة التي كانت تجري في منطقة شامانية العشيرة تحضرها العشيرة برمتها. وقد لاحظ المختصون في الشامانية ان الشعائر التي تحيط بابتداء الشامان قد تطورت بصورة اشد ثراءً في شامانية المناطق الجنوبية؛ وكان شامان البوريات مثلاً، يعد في خلال مهرجان الابتداء الكبير بالوفاء بالتزامات مهنته.
- كان ابتداء دخول الشامان عند الشعوب القبلية في آسيا السيبيرية والوسطى اقل رسمية منه في اي مكان آخر، وكانت الأسرار الدينية التي تحيط بدعوة الأرواح وخبرة لقائهم لا يعلو عليها شيء؛ حيث كانت هناك بضعة مقتضيات ضرورية، وان الإعلان الطقسي عن الشامان الجديد لم يكن مهماً في ذاته، اذ كانت اعمال الشامان اللاحقة هي التي تُثبت هل كان مقتدراً ام لا[١٤٦].

٥. المعتقد الشاماني:

رأينا اعلاه ان جزء مهم من تعليم الشامان المبتدئ هو المعتقد الشاماني، ولنا هنا ان نتساءل: ما هو هذا المعتقد؟.

ان بعض الدلائل عن طبيعة موروث الاعتقاد الشاماني توفره لنا رؤى مدة التعلم، واغنيات الشامان التي تصور مثلاً، رحلة الشامان الى العالم الآخر، فضلاً عن الاساطير الشفاهية والتي يمكن ايضاحها بما يلي:.

- **الكون**: ان التصورات الشامانية الخاصة بالكون واضحة في التقاليد الشفاهية، رغم ذلك فإنها تتباين كثيراً في سيبيريا وآسيا الوسطى، فضلاً عن ظهور تأثيرات شديدة من الديانة اللامائية(Lamaism) والديانة البوذية بين شعوب سيبيريا الجنوبية، رغم ذلك يمكن الحصول على ملامح مشتركة واسعة الانتشار بين الشعوب السيبيرية حول الكون. ومن هذه الملامح مفاهيم عن الكون المتعدد الطبقات، المكون من العالم الاعلى، والعالم الأوسط الذي يسكنه الإنسان، والعالم الاسفل، وان هذا الكون المتعدد ينقسم الى ثلاثة، أو سبعة، أو تسع طبقات؛ وتترابط هذه الطبقات بنهر العالم(عند شعب الكيت يمثل الماء المقدس) الذي يبدأ في السماء ويجري عبر الأرض الى العالم الأسفل، أو بثقب في النجم الشمالي في مركز العالم، فعلى سبيل المثال يعتقد التشوكتشي بأنه من الممكن المرور عبره من طبقة الى أخرى. وتعتقد الشعوب الشمالية بوجه خاص، فضلاً الى اعتقادهم بالكون المتعدد الطبقات، بمفهوم عالم علوي شبيه بالخيمة، والقبة الزرقاء الخاصة بها تمتد فوق عالم مستدير أو مربع(حسب اختلاف التقاليد)؛ وما يدعمها في المركز العمود الكوني؛ والظاهرتان الموازيتان للعمود الكوني في التقاليد المختلفة هما الجبل الكوني والشجرة الكونية، ونظيرة الشجرة الكونية في التقاليد الشامانية هو شجرة الشامان، التي يمكن للشامان بوساطتها ان يسافر من مستوى عالم الى مستوى عالم آخر. وتشير التقاليد المحلية الى تصورات متنوعة عن الكون والعالم، اذ يعتقد شعب الياقوت بأن الكون كان موجوداً منذ الأزل، وتروي اسطورة أخرى عن سقوط الأرض من السماء؛ اما قبائل القرغيز فتروي اساطيرهم عن عدم وجود ماء في البدء وان اول ثور اوجد الأنهار والجداول بحرث الأرض بقرنيه؛ وتعتقد قبيلة البوريات التي تسكن قرب بحيرة بايكال بأن الأرض خُلقت من المياه، وقد وضع الإله يرين-آي-توجون(Yryn-ai-tojon) ثلاثة اقراص

من ثلاث سمكات عظيمات لتثبيت موضع الأرض، وتحدث الهزات الأرضية عند تحرك احدى هذه السمكات[١٤٧].

- **العالم الاسفل**: كان على المبتدئ ان يدرس في مدة تعلمه بنية الكون وان يتعلم قبل كل شيء طبوغرافيا العالم الآخر: الممرات، والأنهار المؤدية الى ذلك العالم، وأماكن الارباب المتعددين، والأرواح الحارسة، وشياطين المرض، والموتى؛ وكان الطريق الى العالم الآخر يوصف عادة بأنه محفوف بالمصاعب والأخطار، وكان شامان النانااي مثلاً قادراً على وضع قائمة بالمعالم على امتداد الطريق الى مملكة الموتى والأخطار التي تنتظره على امتداد الطريق. وتشير التقاليد السيبيرية ان الإله المسؤول عن العالم الأسفل هو ايرليك ويمثل روح الشر في الاساطير السيبيرية، وعند قبائل اللاب في سيبيريا عُد سيد العالم الأسفل وحارساً مخيفاً لأرواح الموتى. وتروي اساطير التتار من القبائل الالطائية اسطورة ايرليك ونسله، اذ تقول ان الإله الأعلى اولغان(Ulgan) رأى قطعة طين تطفو في المحيط وعليها وجه انسان فأعطاه هذا الإله روحاً؛ وقد غدا هذا المخلوق ايرليك، واصبح صديقاً للإله، ولكن غروره ادى الى نفيه الى العالم الاسفل والاعماق، فأصبح سيد الموتى، واخذ شكلاً مرعباً، وتعتقد القبائل الالطائية ان ايرليك هو ابو البشرية، وهو الذي يسيطر على الموت بينما يسيطر اولغان على الحياة. كما تعتقد هذه القبائل ان ايرليك صنع الأماكن المقفرة والموحشة، اذ طلب منه الإله جلب قطعة من الطين من المياه، فأخذ جزءً في فمه ليصنع عالمه، وبدأت القطعة تتسع، مما جعله يحس بالاختناق فأمره اولغان برميها فرماها ومنها خُلقت المستنقعات[١٤٨].
- **الآلهة**: آمن السيبيريون بالآلهة، فقد كان الإله بوغا(Buga)، هو الإله الخالق في اساطير سيبيريا، ولاسيما شعب التونغوز المقيم في الاجزاء الشرقية من سيبيريا، وتذهب الأسطورة ان بوغا الإله الخالق اخذ مواد الخلق وعناصره من الجهات الأربع للأرض: فأمده الشرق بالحديد، والجنوب بالنار، واعطاه الغرب بالماء، في حين ان الشمال زوده بالشراب، وقد خلق من التراب لحم وعظام اول كائنين من البشر(ذكر وانثى)، كما خلق القلب من الحديد، والدم من الماء، والدفء من النار[١٤٩].وهناك الإله يرين- آجي- توجون(Yryn-ajy-tojon) وهو الإله الخالق الأبيض، ويعتقد شعب الياقوت انه يعيش في نهر لينا في سيبيريا، وقيل أيضاً انه الكائن الأعلى ويسكن في شجرة عملاقة على قمة تل في مركز العالم؛ وهذه الشجرة الكونية تمتد بأغصانها الى طبقات السماء السابعة، وتمتد جذورها في الأعماق في تيه هو مسكن الأرواح الأرضية، وجذع الشجرة لا ينكسر واوراقها لا تذبل. وتروي اسطورة ان هذا الإله رأى ذات يوم كيساً من الهواء يطفو على سطح الماء فسأله: ما هذا؟، فأجاب الكيس: "انا الشيطان الذي يعيش على الأرض تحت الماء"، فقال الإله: "لو ان هناك ارضاً تحت الماء، فأحضر لي قطعة منها"، فغطس الشيطان تحت الماء، وعاد من الأرض، فباركها الإله وجلس عليها؛ فغضب الشيطان، وحاول اغراق الإله بجذب قطعة الأرض من تحته، لكن كلما جذب القطعة اتسعت اكثر حتى غطت الماء[١٥٠]. ومن الآلهة آجي سيت(Ajysyt)(القابلة)، وهي الإلهة-الأم لشعب الياقوت، وتسمى كذلك: "ام المهد"، واعتقدوا انها تكون حاضرة في كل ولادة لأنها الإلهة القابلة والحاضنة. ويعتقد الياقوت انها تأتي من السماء بروح الطفل، في وقت اعتقد بقية القبائل السيبيرية بأنها تسكن السماء على جبل بسبع طبقات، وتكتب اسم كل طفل في كتاب ذهبي. اما التتار من القبائل الالطائية فسموها: "ام بحيرة الحليب"، وفي اسطورتهم يتحدثون عن إله ابيض جاء قرب بحيرة الحليب تحت الشجرة الكونية التي تمثل العمود الكوني، وهو الإله الأبيض الخالق، وقد سمع الشجرة تُخرج صوتاً، وسرعان مت خرجت إلهة انثى من جذورها، وارضعته من حليبها، فأصبح قوياً، وبذلك دمجت تلك القبائل بين شجرة الحياة والإلهة الأم[١٥١]. والشيء المهم انه في سيبيريا والشعوب الرعوية في اسيا الوسطى كان الصيادين البدائيين يقدمون الى الكائنات العليا أو الالهة السماوية العظام ورؤوس الحيوانات، والتي كانت تعد تكريما مميزا لها[١٥٢].
- **الأرواح**: كانت قبائل سيبيريا تعتقد بأن العالم في البدء كان مليئاً بالأرواح والأشجار والجبال والأنهار والبحيرات والحيوانات، وبعبارة أدق: يحرس كل شيء حي روح؛ وكان الموت والذبول كان يعني رحيل الروح؛ وقد استخدم الشعب الالطائي كلمة قوت لتدل على روح الإنسان والطبيعة. وكانت هناك أرواح

عظمى مثل اوكولان توجون وهو سيد المياه؛ لذا عاملوا الماء باحترام في شمال آسيا، وقدم المغول القرابين لعبور المياه، واعتقدوا ان بعض المياه تصب في خلجان ثلجية تتحكم فيها ارواح تأكل روح الإنسان. وكانت الأرواح التي تتصل بالشامان في فترة تعلمه في سيبيريا الشمالية الشرقية هي أرواح الطبيعة على الأغلب؛ ويصور شامان الكورياك(Koriak) كيف ظهرت امامه في الغابات ارواح الذئب والغراب والدب ونورس البحر والسقساق في شكل بشري احياناً، وفي شكل حيواني أحياناً اخرى، طالبة إليه ان يدخل في خدمتها. وكان التشوكتشي، على سبيل المثال، ان: "كل شيء يعيش"، اي انه حتى الأشياء غير الحية لها نوع من الروح، وهكذا تشمل عصبة الشامان من الأرواح على أشياء متنوعة: كالأحجار، وصحون البيت!!!. ومما له أهمية انه ليس هناك ثمة اختلاف بين الأرواح المرشدة في مدة الابتداء والارواح المساعدة بالمعنى الضيق للكلمة، فالأرواح التي تظهر امام المبتدئ تُصبح أرواحه المساعدة عندما يكون شاماناً. وفي شامانية الجماعة الصغيرة في سيبيريا الشمالية الغربية نجد كذلك ان الأرواح التي تؤثر في ابتداء الشامان هي ارواح الطبيعة على الأغلب، وتبرهن رؤى الابتداء عند نغاناساني(Naganasani) ان المبتدئ يصادف عدداً من ارواح الطبيعة، كروح الماء مثلاً، التي تمنح المبتدئ مرشدين لهم اشكال حيوانية في رحلته الى العالم الآخر؛ وهناك في ذلك العالم تصنع ارواح الحدادين شاماناً جديداً على سندانها، كما رأينا في التجربة القاسية التي يمر بها الشامان اثناء الغيبوبة الشامانية؛ اما الأرواح المرشدة فتغادر الشامان بعد ابتدائه الوجدي، في الوقت الذي يكون فيه قد عرف ارواحه المساعدة. وتؤدي ارواح الشامانات السابقين دوراً مهماً في ابتداء الشامان في شامانية العشيرة والشامانية الاحترافية في سيبيريا الجنوبية، فعلى سبيل المثال، يقول الافنكي(Evinki) والترانسبايكاليا(trsnsbaikalia) ان احد الشامانات الموتى يظهر امام مرشح محتمل ويأمره ان يتبعه. وقد تظهر أرواح الشامانات السابقين بوصفهم مختارين للمرشح، أو بوصفهم معلمي المبتدئ فوق الطبيعيين، أو بوصفهم ارواح تنفذ عملية التقطيع في التجرية الشامانية، كما هو الأمر في تونغوسكا الدنيا(Lower Tunguska)، وتظل روح شامان سابق في العادة الروح المساعدة للشامان بمعنى الكلمة. وعلى الرغم من ان الأرواح المساعدة للشامان عند الافنكي، مثلاً، تظهر في شكل حيوان او طائر، إلا انه تدعمه عادة ارواح شامان في شكل بشري. والروح الموروثة الأخرى هب ناناي اجامي(Nanai Ajami)، وهي الروح الوصية على مرحلة المبتدئ، والتي تعلمه احوال العالم الآخر وتزوده بالأرواح الضرورية الخاصة بالشامانية. والعلاقة بين الاجامي والشامان علاقة حب جنسي، فالروح المقصودة تكون روح زوج أو زوجة يتم تناقلها من شامان الى آخر ضمن الأسرة؛ وهناك الشامانات المخنثون عند الشعوب القبلية التي موطنها الأصلي هو سيبيريا وآسيا الوسطى يمكن ان يكونوا روحاً عاشقة. والدور المهم في حكايات التعلم الشاماني عند شامانات الياقوت تؤديه الأم الحيوانية وأرواح الشامانات السابقين، ويمكن لأرواح الاباسي(Abassi) الشريرة ان تؤدي اسرار التعلم الشاماني. اما الام الحيوانية، التي هي تجسيد روح الشامان الكوت(Kut)، اي شبيهه الذي لا يُرى، كان يُعتقد انها تظهر لدى ولادة الشامان أو موته أو اثناء فترة تعلمه؛ وكان يُعتقد أيضاً ان الأم الحيوانية تظهر في شكل طائر ذي ريش حديدي، وتجلس على غصن شجرة الشامان، وتجلس على بيضة تحتوي روح المبتدئ حتى تفقس الروح من البيضة. وتختلف طبيعة الأرواح المساعدة وعددها تماماً من مجموعة قومية الى اخرى، فعند اوب-اوغريين(Ob-Ugrians) والمانسي(Mansi) قد تكون لدى الشامان سبعة ارواح مساعدة، اغلبها في شكل حيوان مثل الدب أو الايل، أو الذئب أو الحصان أو الافعى أو السمكة أو الطائر. وكانت الطيور الشائعة في المناطق الشمالية العُقاب والبوم، فضلاً عن طيور الماء، ويقال ان الشامان يتخذ شكل طائر منها حين يسافر مجتازاً الطرقات ما تحت المائية الى العالم الآخر. والمعتقدات المتصلة بالعلاقة بين الشامان وأرواحه معتقدات معقدة فقد يسافر الشامان في شكل حيوان؛ والشامان لدى الياقوت مثلا، يحارب الشامانات الاخرين في شكل امه الحيوانية، بوصفها ايلاً أو ايلاً احدي؛ ومن جهة اخرى فإن الأرواح المساعدة قد تصحبه بوصفها مساعدات خارجية، فعلى سبيل المثال، كان الشامان الافنكي من منطقة پودكامنيا تونغوسكا(Podkamennia Tunguska) يسيطر على زمرة كبيرة من الأرواح في رحلته الى العالم الاسفل[١٥٣].

٦. **العضوية الشامانية:**

بعد انتهاء الشامان من مدة التعلم تقام عادة مراسيم عامة للاحتفال بدخول عضوية الشامانات السيبيريين، وتعد مراسيم البوريات هي من اكثر المراسيم التي تستأثر بالاهتمام: اذ تقام شجرة بتولا قوية في الخيمة المستديرة، جذورها على الأرض وذروتها تبرز من فتحة الدخان، وتدعى شجرة البتولا هذه أودشي بورخان(Udeshi Burkhan) اي حارسة الباب، لأنها تفتح للشامان باب السماء، وستظل شجرة البتولا في خيمته على الدوام، مؤدية دور العلامة المميزة لمكان اقامة الشامان. وفي يوم تكريس المرشح يتسلق شجرة البتولا حتى القمة، وفي بعض التقاليد يحمل بيده سيفاً، ويُظهره من فتحة الدخان، ويصيح لاستدعاء عون الآلهة. وبعد ذلك يذهب الشامان الاستاذ، والتلميذ، والجمهور كله في موكب الى مكان بعيد عن القرية، حيث ينتصب، قبيل المراسيم، عدد كبير من اشجار البتولا على الأرض من جهة اليمين، ويتوقف الموكب عند شجرة بتولا معينة، ويُضحى بماعز، ويكون المرشح، المتعري حتى الخصر، قد دهن بالدم رأسه وعينيه واذنيه، في حين يقرع الشامانات الآخرون الطبول. وبعد ذلك يتسلق الشامان الأستاذ شجرة بتولا ويشق تسع اثلام من اعلى جذعها، عندئذ يتسلقها المرشح، ويليه الشامانات الآخرون، وعندما يتسلقون يقعون جميعاً- أو يتظاهرون بالوقوع- في حالة الغيبوبة. اما المرشح فعليه ان يتسلق تسع اشجار بتولا ترمز، شأن الاثلام التسعة التي يشقها الشامان الاستاذ، الى السموات التسع. وفي طقس الدخول في العضوية الشامانية لدى البوريات، يُعتقد ان المرشح يصعد الى السماء من اجل تكريسه؛ والتسلق الى السماء بعون من شجرة أو عمود هو كذلك طقس اساسي في اللقاءات الروحية عند الشامانيين الالطائيين، فيجري تشبيه شجرة البتولا أو العمود بشجرة أو سارية تقف عند مركز العالم وتصل الى المناطق الكونية الثلاث، الارض والسماء والجحيم. ويستطيع الشامان ان يصل الى مركز العالم بقرع طبله، لأن بدن طبله يُفترض انه مصنوع من غُصن مأخوذ من الشجرة الكونية. والشامان، بإصغائه الى صوت طبله يقع في الوجد ويطير الى الشجر الكونية، اي الى مركز العالم(١٥٤).

٧. **الادوات الشامانية:**

يميز الشامان عادة عدداً من الأدوات التي يستخدمها في طقوسه، والملابس التي يرتديها وهي:

- الطبل: يرتبط الطبل بفكرة رحلة الشامان، ومن ذلك مثلاً، ان الاقنكي والتراسبايكاليا يدعون الطبل قارباً، في حين يدعونه الياقوت والبوريات والسويوت حصاناً، وفي هذه الحالة الاخيرة يكون عصا الطبل سوطاً. والشامان بواسطة الطبل يركب أو يطير، وهو بكلمات اخرى، يحقق حالة مختلفة من الوعي، وان هيكل الطبل مصنوع من جلد حيوان تختاره الأرواح، وتدل مراسيم الإحياء في المناطق الالطائية على ان الحيوان المستخدم جلده في صناعة الطبل يمثل إحدى الأرواح الشامانية، وخلال هذه المراسيم فإن الحيوان الذي صُنع الغشاء من جلده: "يعود الى الحياة مرة اخرى"، منبئاً عن حياته، وواعداً بمساعدة الشامان؛ كما ترمز الأغراض المنحوتة على هيكل الطبل، أو المرسومة على الجلد الى الأرواح الشامانية وتعبر كذلك عن المفاهيم الكونية.
- الملابس: بالرغم من ان ملابس الشامان هي، مع الطبل، معلم من معالم الشامانية التي تستوقف النظر، فإن الخصائص المميزة لها وطرازها يختلفان من منطقة الى اخرى، فلا توجد عند التشوكتشي، مثلاً، ملابس شامان بالمعنى الضيق للكلمة، وعند الاستعداد للجلسة الروحية كان الشامان يظهر عارياً حتى الخصر؛ وعلى نحو مشابه، فإن المفردة الوحيدة التي كانت تحدد الشامان عند النينتسي(Nentsi) وهم شعب سامودي يقطن في الشمال الغربي من سيبيريا، كانت العمرة التي يلبسها. والملابس ذات العدد الأكبر من الزخارف الرمزية موجودة في سيبيريا الوسطى والجنوبية وفي آسيا الوسطى. ورداء الشامان مصنوع من الريش أو القماش، وعليه اشياء تُعلق من المعدن والعظام والقماش تصور ارواحاً في شكل حيواني أو بشري أو ظواهر مرتبطة بالعالم ما فوق الطبيعي؛ فعلى ظهر ثوب شامان الياقوت، مثلاً، قرصان معدنيان، هما شمس الشامان وقمره، اللذان يوفران الضياء في الطريق المظلمة الى العالم الآخر. وعلى الرغم من اختلاف الصور الرمزية، فالفكرة الرئيسة خلف ثوب الشامان واضحة، اذ يظهر الريش المرتبط بالعمرة، والزوائد المزينة بالفرو أو التي تشبه الأجنحة على الاكمام، والقرون أو انف الدب على العمرة ان يمثل يمثل اساساً نوعاً من الحيوان؛ والنمط الأكثر شيوعاً موجود لدى الالطائيين

يحاكي في اكثر الاحيان بومة أو عُقاباً، وفي سيبيريا الشمالية يحاكي يمثل ايلاً؛ ويرتدي السامودي والكيت كذلك ثوباً يُذّكر بالدب. والشامان، زيادة على الصور المرتبطة بالأرواح أو العالم الآخر، له كذلك اضافات حديدية أو عظمية تشبه الهيكل العظمي البشري أو الحيواني، وترمز هذه الإضافات الى ما يعانيه الشامان من الموت والولادة الجديدة خلال الرؤية الوجدية في مدة التعلم. ويمثل الثوب الأسرار التي يتعلمها الشامان، وهو مكان إقامة الأرواح، وهكذا يُعتقد ان الثوب نفسه يمتلك قوة فوق الطبيعة. وفي شامانية العشيرة لا يمكن ان يُباع الثوب خارج العشيرة، لأن أرواح الشامان تنتسب الى العشيرة المرتبطة بها، ويمكن ان يُعلق ثوب الشامان البالي على شجرة في الغابة، حتى تستطيع الأرواح ان تغادره تدريجياً وتدخل ثوباً جديداً(١٥٥).

٨. **مهام الشامان:**

ان اهم مهام الشامان هو القيام بالجلسة الروحية، وبشكل عام فإن البنية الاساسية للجلسة الروحية موحدة نسبياً، وبقطع النظر عن موضوع الطقس الشاماني، فإن الجلسة الروحية تُظهر اختلافات تبعاً للطريقة التي تتم بها ملاقاة الأرواح؛ وان الشعائر المتعددة، واظهار حضور الأرواح وابعادها، والحيل أو عروض البراعة التي تبرهن على القدرات المتفوقة عند الشامان تتباين من منطقة الى أخرى، وبرغم الاختلافات الثقافية، فإن الملامح الأساسية لتقنيات الوجد عند الشامان، والدور الذي يؤديه الحاضرون بوصفهم مساعدين في الجلسة الروحية هي عناصر الشامانية المشتركة في كل انحاء سيبيريا وآسيا الوسطى، وابرز ملامح الجلسة الشامانية هي:

- ❖ تقضي الجلسة الشامانية ان يكون الشامان نفسه ومكان الطقس مُعدين بعناية شديدة، وكثيراً ما تسبق الجلسة الروحية مدة من الزمن يدخل فيها الشامان في الاعتكاف، ويصوم، ويتأمل، ويتذكر تفصيلات الشعائر التي عليه ان يؤديها خلال الجلسة الروحية؛ وقبل تنفيذ الطقس عليه ارتداء ثوب الشعيرة، وضبط صوت الطبل.
- ❖ تنعقد الجلسة الروحية الفعلية عادة اثناء الظلام، مع وجود نار مشتعلة في الوسط، لأنه يُعتقد ان الأرواح تخشى النور.
- ❖ كانت اماكن الجلسات الروحية تختلف كثيراً، وتعتمد على مكانة الشامان، وأهمية مهمته؛ فالشامان وحامي العشيرة في منطقة پودكامينا تونغوسكا يعقد جلسته الروحية في سيڤينشيديك(Sevenčedek)، وهي خيمة تقام لهذا الغرض على وجه الخصوص، وكانت الجلسة تحضرها العشيرة كلها، ويتعاون اعضاؤها على الإعداد لها. ويبدو انه كلما ارتفعت مكانة الشامان وكبرت الجماعة التي يمثلها، اشتد تعقيد المتطلبات الاساسية الرمزية للثوب ومكان الجلسة الروحية، وازداد سير طقس الجلسة الشامانية.
- ❖ قبل الجلسة الروحية، كان من دأب الشامان، والذين هم في حاجة الى عونه، والجمهور ان يجتمعوا، وعند بدأ الجلسة الروحية يبدأ الشامان باستدعاء ارواحه المساعدة بالغناء وقرع الطبل؛ وموضوعات اغاني الشامان تشمل دعوة الأرواح المساعدة، وتصوير رحلة الأرواح، ووصف رحلة الشامان الى العالم الاخر، ووصف طبوغرافية العالم ما فوق الطبيعي. وفي الاغاني التي تنادي الأرواح، والتي من خلالها قد يحاكي الشامان اصوات الارواح المساعدة ذات الاشكال الحيوانية من خلال التصفيرات والصيحات والدمدمات، يدعو الأرواح الى الجلسة الروحية، وقد يقدم وصفاً لرحلتها الى تلك الجلسة من مقامها في العالم الآخر خطوة تلو خطوة.
- ❖ ان دعوة الأرواح المساعدة تتم عن طريق الغيبوبة الذهنية(حالة الوجد)، بما ان تقنيات الوجد هي ابرز ما يميز الشامانية، وسواء كان الشامان يتم اختياره من كائنات فوق مستوى البشر ام كان ينشد بنفسه جذب انتباههم وكسب فضائلهم، فهو فرد يفلح في ان تكون له تجارب صوفية؛ وفي مجال الشامانية يتم التعبير عن الخبرة الصوفية في غيبوبة الشامان الحقيقية أو المصطنعة. ويتم الوصول الى حالة الوجد عن طريق القرع الايقاعي على الطبل، والرقص، والغناء الذي يصبح اشد صخباً وهياجاً. وكان مفعول الهياج يشتد عند الاوب-اغريين والشعوب القبلية الأخرى التي موطنها الاصلي هو اسيا السيبيرية عن طريق وسائل مصطنعة، على سبيل المثال، بأكل فطر الامانيت السامة؛ أو احراق اعشاب متنوعة تُحدث دخاناً مُسكراً، وفي فترة أحدث تدخين التبغ، واستهلاك الكحول. ويدل الوجد الشاماني على طيران

الروح الى السماء، أو طوافها حول الأرض، أو نزولها الى عالم ما تحت الأرض، بين الموتى؛ والشامان يتولى هذه الرحلات الوجدية لأربعة اسباب هي: ليلتقي الإله السماوي وجهاً لوجه، ويُحضر له تقدمات من الجماعة البشرية التي يمثلها؛ أو للبحث عن روح انسان مريض، من المفترض انها هامت بعيداً عن جسده أو اختطفتها الشياطين؛ أو ليرشد روح إنسان ميت الى مسكنها الجديد في العالم الاسفل؛ أو ليضيف الى معرفته خبرة بالتردد الى الكائنات العليا غير البشرية؛ تأتي الذروة الوجدية للجلسة الروحية في المرحلة التي من المفترض ان يلتقي بها الشامان بأرواحه المساعدة، ويسافر معها الى العالم الآخر، أو يُبعد، مثلاً، شيطان مريض استقر في أحد المرضى.

❖ ان الشامان يتعلم عبر دخوله في العضوية ما يجب عليه ان يفعله عندما تتخلى روحه عن جسده- وقبل كل شيء- كي يوجه نفسه من المناطق المجهولة التي يدخلها في اثناء الغيبوبة؛ انه يتعلم ان يسبر المستويات الجديدة للوجود التي تكشفها خبراته الوجدية؛ كما يعرف السبيل الى مركز العالم: الثقب الذي في السماء والذي من خلاله يمكن ان يحلق الى السماء العليا، أو الفتحة التي في الأرض والتي من خلالها يمكن ان يهبط الى العالم الاسفل؛ وهو يعرف سلفاً العقبات التي يمكن ان يصادفها في رحلاته، ويعرف كيف يتغلب عليها. وباختصار يعرف السبل المؤدية الى السماء والى الجحيم، وكل هذا قد تعلمه في اثناء تدريبه منفرداً، أو بإرشاد الشامانات الاساتذة. والشامان لقدرته على ترك جسده بأمان، يستطيع ان يتصرف تصرف الروح، إذا اراد ذلك اي انه في حالة الغيبوبة من المفترض انه يستطيع ان يطير عبر الهواء، ويصير غير مرئي، ويدرك الاشياء من مسافات كبيرة، ويصعد الى السماء، أو ينزل الى الجحيم، ويرى ارواح الموتى، ويستطيع ان يمسك بها، ولا تنفذ إليه النار؛ كما ان لديه القدرة على ان يتحول الى حيوان، وان يقتل عن بعد، ويتنبأ بالمستقبل.

❖ ان المشترك في الأجزاء الشرقية والوسطى في سيبيريا، وعلى سبيل المثال، عند اليوكاجير، والاڤنكي، والياقوت، والمانتشو، والناناي، والاورتشي، هي جلسة الحيازة الروحية، التي في اثنائها تدخل الروح الرئيسة المساعدة للشامان في جسده، وتتكلم من خلاله، فيتماثل الشامان مع الروح تماماً؛ وهو من المفترض ان يتحول في الحقيقة الى الروح، ويُظهر هذا التبدل في ايماءاته وحركاته وكلامه؛ ويحضر الجلسة أيضاً شخص آخر، هو في العادة معاون الشامان، يصيح الشامان، ويكلم الروح. وفي المناطق التي يكون فيها نمط غيبوبة الحيازة شائعاً، يكون التفسير المألوف للمرض هو ان روحاً شريرة قد دخل في الشخص المريض، ومهمة الشامان عندئذ هي ان يُبعد الروح الشريرة، وللقيام بذلك يأخذ الشامان الروح الشريرة الى نفسه، وبعبارة ادق: يتحول هو الى الشيطان؛ وثمة جلسات غيبوبة حيازة يسافر فيها الشامان، مع ارواحه المساعدة الى العالم الآخر، من اجل ابعاد الروح الشريرة.

❖ قد يوهم الشامان كذلك بأن الأرواح المساعدة حاضرة في الجلسة الروحية من دون ان يندمج معها، ويكشف شعب التشوكتشي عن براعة عظيمة في إظهار الأرواح بتقنية التكلم البطني الذي يصدر المتكلم به اصواتاً تبدو آتية من مصدر غيره؛ ويحضر الشامان عن طريقها الى الجلسة روحاً بعد أخرى، ويتمكن الجمهور من سماع الأرواح وهي تتكلم خارج جسد الشامان. ولقاءات الشامان مع الأرواح من دون حيازة معروفة كذلك في سيبيريا الغربية وآسيا الوسطى؛ وعند التتار المينوسنكيين(Minusink Tatar) يرش معاون الشامان الماء حوله لتشربه الأرواح حتى لا تقترب كثيراً من الشامان. واذا كانت الفكرة الرئيسة للجلسة الروحية هي طيران الروح، أو رحلة الشامان الى العالم الآخر، فإن اظهار الأرواح لا تكون مثيرة كما هي مثيرة في الجلسات الروحية الخاصة بحيازة الأرواح. والجلسات الروحية المثالية في الأنحاء الغربية والشمالية من سيبيريا، عند السامودي والأوب-اغريين مثلاً، هي الجلسات التي يتم فيها تصور الشامان مسافراً الى العالم الآخر مع ارواحه المساعدة، وليس التوكيد هنا منصباً على تبديل الدور والتحدث الى الأرواح بل على وصف رحلة الشامان، وفي هذا النمط من الجلسة تتعمق عادة غيبوبة الشامان باستمرار وتنتهي بفقدان الوعي. والجلسات من النمط القائم على الحيازة أو التكلم البطني على حد سواء، كثيراً ما يدعو الشامان ارواحه مرة اخرى بعد عودته، بالغناء وقرع الطبل.

❖ في العادة تنتهي الجلسة الروحية بحدث يُبعد الشامان في اثنائه ارواحه المساعدة، ويجيب عن اسئلة الحاضرين، ويصدر التعليمات بما يجب القيام به من الاضحيات أو الاستعطافات المطلوبة[١٥٦].

ويمكن ان نقدم امثلة عن الجلسات الشامانية السيبيرية، اذ تتحدث قبيلتا البوريات والياقوت وغيرهما من القبائل السيبيرية عن الشامانات البيض والشامانات السود، والبيض لهم علاقة بالآلهة، وللسود لهم علاقة بالأرواح، ولاسيما الأرواح الشريرة. وتختلف ملابسهم، فهي بيضاء، كما هو الحال عند البوريات، بالنسبة الى الشامانات البيض، وزرقاء بالنسبة الى الشامانات السود. وان اهم عملية يقوم بها الشامان الابيض الالطائي هي الصعود الى السماء، فمثلاً عندما يضحي بالحصان المقدم الى إله السماء، فإنه وفي حالة غيبوبة يُسيّر روح الحيوان الى رحلتها نحو عرش باي اولغن(Bai Ulgen)، رب العالم العلوي. والشامان بارتدائه حلته الاحتفالية يستحضر عدداً غفيراً من الأرواح، ويقرع طبله، ويبدأ صعوده السماوي؛ وبعناء يمثل بالحركات والاشارات الاجتياز الصعب لسماء بعد سماء حتى السماء التاسعة، واذا كان قوياً حقاً فيستمر حتى السماء الثانية عشر، أو حتى الى اعلى. وعندما يذهب الى العلو، الى حيث تسمح قدراته، يتوقف ويخاطب باي اولغن بتخشع، مبتهلاً إليه ان يمنحه حمايته وبركاته. ويعلم الشامان من الإله هل قُبلت الاضحية؛ كما يستقبل النبوءات المتعلقة بالجو والحصاد القادم. والحدث البارز هو لحظة الوصول بالوجد الى الذروة حيث ينهار الشامان، ويغدو منهك القوى، ويظل دون حراك ولا كلام، وبعد مدة يفرك عينيه، ويظهر في حالة استيقاظ، ويرحب بالحاضرين وكأنه يحييهم بعد طول غياب[١٥٧].

ان للصعود السماوي للشامان الالطائي نظيره في هبوطه الى العالم الاسفل، وهذه المراسيم الدينية اصعب بكثير، وعلى الرغم من انه يمكن ان يباشرها الشامان الابيض والشامان الاسود على السواء، فمن الطبيعي انها من اختصاص الشامان الاسود. ويقوم الشامان بالنزول العمودي الى المستويات أو المناطق المتتابعة تحت الارض التي تدعى پوداك(Pudak) اي العوائق، ويصحبه اسلافه وارواحه المساعدة، وعند العائق السابع يرى قصر ارليك خان(Erlik Khan) رب الموتى، المبني من الحجر والصلصال الاسود والمحمي من كل الجهات. وهناك ينطق الشامان صلاة طويلة الى ارليك خان، ثم يعود الى الخيمة المستديرة ويقص على الجمهور نتائج رحلته[١٥٨]. اذاً تتم عمليات الهبوط الى العالم الاسفل بصورة خاصة للعثور على روح شخص مريض واعادتها، أو لتشييع روح الميت الى مملكة ارليك خان، وفي عام ١٨٨٤ نشر س. ف. رادلوف(C. V. Radlov) وصف جلسة روحية نُظمت لتشييع روح امرأة الى العالم الاسفل بعد ٤٠ يوماً من وفاتها. وتحدث المراسيم في المساء، ويبدأ الشامان بالدوران حول الخيمة، ويقرع طبله، ثم يدخل الخيمة، ويذهب الى النار، ويستحضر روح الميتة، وفجأة يتغير صوت الشامان، ويبدأ الكلام بصوت ذي طبقة رفيعة عالية، لأن المرأة الميتة هي من المفترض التي تتكلم، اذ انها تشتكي من انها لا تعرف الطريق، وانها خائفة من مفارقة اقاربها، وما الى ذلك، ولكنها في آخر الأمر تقبل بقيادة الشامان لها، ويخرج الاثنان معاً الى مجال ما تحت الأرض؛ وعندما يصلان، يجد الشامان ان الموتى يرفضون السماح للقادم الجديد بالدخول؛ وتُظهر الصلوات انها عديمة الجدوى، فيقدم لها الشراب، وتصبح الجلسة الروحية اكثر انتعاشاً بالتدريج، حتى الى درجة غريبة عجيبة، لأن الارواح تبدأ، من خلال صوت الشامان تتشاجر في الكلام وتغني معاً، وأخيراً ترضى ان تستقبل المرأة الميتة. ويمثل الجزء الثاني من الشعيرة رحلة العودة، اذ يرقص الشامان، ويسقط على الأرض فاقد الوعي[١٥٩].

ان الوظيفة الاهم المرتبطة بالشامان في سيبيريا هي الشفاء، وتوجد في هذه المنطقة عدة تصورات لسبب المرض، فكان الناناي والاولتشي السيبيريون مثلاً قد قسموا الأرواح إلى أرواح عادية ودعوها سيفين وأرواح شريرة ودعوها أمبان، وإذا كان التفاهم لا يزال ممكنا مع الأولى، فان هذه الأخيرة ترفض رفضا قاطعاً ان تنزل عند إرادة الإنسان، وقد يكون بعض السيفين أرواحاً تساعد الشامان على تأدية أعماله، أما الباقي منها فقد يأتي إلى أي إنسان ويرغمه على الاهتمام به، ويحدث هذا كما يرى الناناي والاولتشي بان تمس الأرواح الناس فيقع هؤلاء صرعى الأمراض، ولم تلجأ الأرواح إلى مثل هذا السلوك إلا لكي ترغم الإنسان على إطعامها، ويمكن ان تأخذ شكل بشر أو صور الحيوانات[١٦٠].

ولكن اغتصاب الروح هو السبب الأوسع انتشاراً من غيره بكثير. ويُعزى الداء الى ان الروح قد ضلت بعيداً أو انها قد سُرقت، ويُختزل العلاج من حيث المبدأ في العثور عليها، والإمساك بها، وإلزامها بأن تعود الى مكانها الأول في جسد المريض[١٦١].والشامان هو من بين سائر المتعاملين مع الشأن المقدس، الاختصاصي المتميز والمتفوق في الوجد والانخطاف، وبفضل كفاءته في الوجد، أي لكونه يقوى على هجر جسده، فهو يقوم برحلات على الصعيد الروحي إلى جميع المناطق الكونية؛ والشامان هو الشافي من العلل والأمراض، وهو من دون سائر الناس بمقدوره ملاحقة روح المريض التائهة، ويقبض عليها ثم يعيدها إلى جسدها[١٦٢]. ففي الأزمنة القديمة كان الشامانيون يقومون بمداواة المرضى واعادة روح المريض من خلال الدخول في غيبوبة من اجل البحث عن الروح المفقودة، حيث يذهب الشامان الى عالم الأرواح ويسيطر على بعض الأرواح ويحاول بواسطتهم اخراج الأرواح الشريرة من جسد الشخص المريض. وتتحدث أسطورة لدى البوريات في إقليم اركوتسك السيبيري بأن مورغان كارا الشامان الأول لقبيلتهم كان ماهرا إلى درجة انه استطاع ان يحرر النفوس ويستعيدها من الموت، فما كان من أمير عالم الأموات إلا تقدم بشكوى إلى اله السماء الأكبر، وعند ذلك قرر الإله ان يخضع الشامان إلى اختبار. لهذا الغرض سيطر على روح احد الناس وأخذها إليه، وحبسها في قنينة ووضع إبهامه في فمها، وعندما تعرض الرجل المعني إلى المرض توسل أقاربه إلى مورغان كارا طالبين المساعدة. وقد بدأ في الحال بمهمته وراح يبحث في كل مكان عن النفس، في الغابات، في الماء، وفي وديان الجبال، حتى في عالم الأموات، ولكن دونما جدوى. وأخيرا صعد الشامان وجلس على الطبل وهو أداته التي يستخدمها للتنقل، من اجل الوصول إلى العوالم العليا. وحتى هناك كان عليه ان يبقى زمنا طويلا باحثا عن الروح، إلى ان لاحظ إنها محبوسة في قنينة وان الإله الأعلى يضع إبهامه في فمها. عند ذلك حول الشامان نفسه إلى دبور ولسع الإله في جبهته مما اضطره إلى رفع الإصبع عن فم القنينة. وبهذه الطريقة تمكن الشامان من ان ينقذ الرجل المريض. وعندما رأى الإله كيف نزل الشامان إلى الأرض ثانية وهو جالس على طبله تملكه الغضب وأضعف من سلطة الشامانات في حين قسم الطبل إلى قسمين[١٦٣].والشامان لدى هذه القبيلة يعقد جلسة روحية افتتاحية لتحديد هل ضلت الروح بعيداً عن المريض أم انها سُرقت منه وهي أسيرة في سجن ايرليك خان، ويبدأ الشامان بعد ذلك البحث عن الروح، فإذا وجدها على مقربة من القرية، فإن اعادتها للجسد امر سهل؛ واذا لم يجدها، بحث في الغابات، والصحاري، وحتى في قاع البحر. ويدل الإخفاق في العثور على الروح على انها سجينة ايرليك خان، والملاذ الوحيد هو تقديم الأضاحي الثمينة؛ وفي بعض الأحيان يطلب ايرليك خان روحاً محل الروح التي سجنها؛ فتكون المشكلة عندئذ هي العثور على روح متاحة. وبموافقة المريض، يقرر الشامان من سيكون الضحية، وبينما تكون الضحية نائمة، يتخذ الشامان شكل نسر، ويحط عليها، وينتزع روحها، ويذهب بها الى عالم الاموات، ويقدمها الى ايرليك خان، الذي سيسمح له عندئذ ان ينقل روح المريض، ومن المفترض عند ذاك ان تموت الضحية ويشفى المريض، ولكنه-اي المريض- في كل الأحوال لم يفز إلا بمهلة، لأنه كذلك سيموت بعد ثلاث أو سبع أو تسع سنوات[١٦٤].وقد ترك لنا احد الرحالة الذين زاروا في القرن الثامن عشر اللابيين وهم قبائل أقصى الشمال في سيبيريا، وصفا حيا عن هذه الطريقة، والتجول الذي يقوم به الشامان في عالم الأموات من اجل السيطرة على الروح التي تؤذي المريض على الأرض، أو إعادة روحه الضالة إليه. إذ يجري الطقس بعد حلول الظلام، لان العالم الأخر، إنما هو مكان الليل الأبدي. وكان الأصدقاء والجيران يجتمعون في خيمة المريض المضاءة بنور خافت، ويتبعون متوترين حركات الشامان. في بدء الطقوس التي يقوم بها، يستدعي الشامان الأرواح القادرة على المساعدة، وهي تعلن عن حضورها وتكون مرئية فقط من قبله. وتتقدم سيدتان بأبهة احتفالية، ولكن دونما نطاق، وبقلنسوة من الكتان ثم رجلان دونما نطاق ومع قلنسوة، ثم تأتي فتاة غير بالغة لمساعدة الشامان. والشامان يعري رأسه ثم يفك نطاقه وسوار حذائه، ويغطي وجهه بيده، ثم يبدأ بالدوران الهائج صانعا دوائر عديدة، إلى ان يصرخ فجأة بحركات متوحشة قائلا: الرنة جاهزة، القارب واضح". ثم يأخذ بلطة ويبدأ بالضرب بها على الركبة، ثم يلوح بها تجاه النساء الثلاث. بعد ذلك يمد يده العارية وينتزع قطعة خشب متوهجة من النار، ثم يدور مهتاجا لثلاث مرات حول كل واحدة من النسوة، وفي النهاية يسقط مغشيا عليه مثل

الميت. أبان هذا الوقت كله لا يجوز ان يلمسه احد، وما دام متصلبا في غيبوبته يجب ان يراقب بدقة شديدة، إلى درجة انه لا يجوز ان تستقر ذبابة عليه، لقد فارقته ألان روحه وشاهدت الجبال المقدسة مع آلهتها. والنسوة يتهامسن مع بعضهن البعض حول التوقعات التي تتساءل عن المكان الذي يوجد فيه الشامان في العالم الأخر. فإذا ما سمين الجبل الصحيح، حرك الشامان يده أو قدمه، وفي النهاية يأخذ طريق العودة. ولكن يمكن ان يحدث ان النسوة لا يتوصلن إلى معرفة موطن إقامة الشامان في العالم الأخر، وفي هذه الحالة يكون من الممكن ان روحه تضل طريق العودة إلى جسده. ومن الممكن أيضا ان روح لشامان معادٍ تدخله أثناء صراعه أو تضله عن طريق العودة، وكثير من الشامانات لم يتسن لهم الرجوع. بعد عودته ويبدأ بنطق الكلمات التي استمع إليها في العالم الأخر، ويكون صوته ضعيفا ومتهالكا. بعد ذلك تبدأ النسوة بالغناء، في حين يستيقظ الشامان ببطء شديد، من غيبوبته ويشرح علة المريض أو يعطي نوع الضحية التي يجب تقديمها، وفي النهاية يحدد المدة الزمنية التي يتطلبها شفاء المريض[١٦٥].

ومن المهام الاخرى للشامان هي الطقوس المرتبطة بالصيد، إذ يظهر ان الشامان لدى الشعوب السيبيرية لعب دوراً هاماً في الصيد والقربان على حد سواء، ففي مجتمعات الصيد تكون مهمة الشامان الرئيسة هي ضمان نجاحه من جهة، وان يُلطِّف من شراسة العالم الآخر المانح للطريدة عن طريق القرابين من جهة اخرى. فـ البوريات في سيبيريا يعدون الحيوانات التي يتغذى بها الانسان، كالأيول والاسماك، تمتلك ارواحاً يتملّكها الشامان بواسطة زوجاته الحيوانية الما فوق طبيعية، خلال طقس يسبق فترة الصيد، ومقابل ذلك فإن الشامان يقلص من القوة الحيوية للحيوانات كما يقلص من القوة الحيوية للصيادين، في وقت تكون الهدايا والقرابين لها القدرة على تأجيل انتقام العالم الآخر من أولئك الصيادين[١٦٦].

- **بقاء التقاليد الوثنية والسحرية في المجتمع الروسي**

لقد اكدنا سابقاً ان انتشار المسيحية لم يقضِ نهائياً على الطقوس والمعتقدات الوثنية، بل نجدها قد بقت متغلغلة داخل المجتمع الروسي بشكل غير رسمي لاسيما في المناطق الريفية، حيث تحول القديسون تدريجياً الى شخصيات اسطورية واخذوا في التقاليد المحلية يكتسبون صفات الآلهة الوثنية القديمة، ويمكن ان نقدم نماذج عن هذه الحالة، إذ شغلت مريم العذراء اهمية كبيرة في المجتمع الروسي، ولكن اضفيت عليها هنا بعض الصفات التي استقيت من مصادر وثنية، ففي بعض الاحيان سميت باسم گراموڤيتسا(Gramovitsa)(مريم الرعد)(Mary The Thunderer) وهو تجسيد لمريم العذراء، وهو جانب تظهر فيه مريم كعمود من نار، وهي سمة كانت تُنسب في العهود السحيقة الى الإله پيرون، وفي هذا الجانب هي المسؤولة عن قوس قزح، وقد عدوه الجسر الذي يربط بين السماء والارض، والذي يسمح للمطر بالتدفق بحرية فوق الحقول[١٦٧]. ويمكن ان نلاحظ ايضاً ان صفات الآلهة الوثنية بقيت موجودة في الصفات التي اضفيت على القديسين المسيحيين، كما هو الحال مثلاً مع القديس ايلياس(Elias)/ايلئيا(Il'ya) وهو الاسم الروسي لأسم النبي ايليا(Elijah) الوارد في العهد القديم، وقد ارتبطت به في روسيا سمات الإله الوثني پيرون، منها القدرة على استدعاء المطر والنار من السماء والسلطة على الحصاد[١٦٨]. والقديس جورج(Saint George) كذلك الذي ارتبطت به تقاليد اسطورية تخص آلهة وثنية قديمة؛ وهذا القديس هو شفيع روسيا، وقد برز تفوقه في القرن السادس عشر الميلادي، وهو كقديس محارب اخذ جوانب من صفات الإلهين الوثنين پيرون وسڤانتوڤيت(Svantovit)(وهو احد آلهة البلطيق)، وحسب التقاليد المسيحية، فإن القديس جورج هو البطل الذي ذبح التنين وأذهل الأرض وسكانها، وقد عُد هذا القديس رمزاً لتدعيم سيادة موسكو، وربما تمثل صورته الحربية في الفن وهو جالس على حصان ابيض كبير، ويحمل بيده الرمح، صورة تقليدية ترمز لحاكم موسكو المدافع عن الارض. وقد ظهر القديس لأول مرة باعتباره الراعي للحكام الروس عام ١٤١٥م تحت حكم امير موسكو العظيم ڤاسيلي الثاني، ثم تعززت مفهوم هذه الرعاية تحت حكم ايڤان الثالث العظيم، وتزايدت شعبية هذا القديس تدريجياً في موسكو الى درجة ان ٤١ كنيسة كانت مكرسة له. وعُد يوم ٢٣ نيسان هو عيد القديس جورج، وهو بداية العام الزراعي، حيث عُد هذا القديس مسؤولاً عن خصوبة الارض، وفي

بيلاروسيا، وكما هو الحال في مناطق اخرى في روسيا فإن الاحتفالات التي تقام في هذا اليوم ارتبطت بطقوس وثنية، ففي هذا اليوم توضع علامة على شاب يدعى جورج يمثل القديس، ويرتدي الناس ملابس ترمز الى الخضار والزهور، وينشدون الاغاني التي تحفز الارض على الخصوبة؛ وفي اوكرانيا يتضمن الاحتفال في هذا اليوم عناصر مسيحية ووثنية، اذ يقود الكاهن مجموعة من الناس الى الحقول لتبارك التربة، ومن ثم تدور المجموعة، أو الكاهن وحده حول نفسه، من اجل اضفاء صبغة من الخصوبة على الارض؛ وهناك يمكن ان نلاحظ ان القديس جورج قد حل محل آلهة الخصب القديمة، وفي تلك الطقوس يجري وصفاً لجميع جوانب الزراعة من النباتات الى الماشية، كما يجري الحديث ان هذا القديس اخترق الارض بفرسه الابيض من اجل احياء التربة، وجميع الحياة الساكنة داخلها، وان سلطته تلك بأمر من مريم العذراء(١٦٩).

كان الروس يعتقدون-وهو معتقد لدى الشعوب القديمة- ان الأموات يقدمون المساعدة للبشر، وعادة ما يذهب الاحياء لاستشارة الاموات في مقابرهم للحصول على نصحهم، لأن الاموات برأي الاقدمين هم اكثر تنويراً من الاحياء، اذ ينظر الناس الى الاموات وكأنهم يمتلكون الالغاز والخفايا، فعلى مقربة من اضرحة الاسلاف يذهب الناس من اجل البحث عن النبوءة، والى مدافن الاجداد يسعى الشعراء من اجل التماس الالهام، فالعالم الاخر هو موطن العلم والحكمة، وان سيد العالم الاخر يحمل المعرفة الكلية، اما الاموات فلديهم العلم بالمستقبل، علم بما سيكون في الايام المقبلة(١٧٠). ففي حكاية شعبية في روسيا تتحدث عن شيخ حكيم له ثلاثة اولاد هم: توم، وباكوم، وايڤانوشكا، وقد عاش هذا الشيخ مع اولاده حتى حانت اخيرا ساعته، واقترب من شفا الموت، فنادى على اولاده الثلاثة وقال لهم: "يا فلذات كبدي، دنت ساعتي، ويجب عليكم ان تتموا رغبتي. على كل واحد منكم ان يأتي الى قبري، ويمضي ليلة واحدة معي: انت يا توماس، تأتي في الليلة الاولى، وانت يا باكوم في الليلة الثانية، وانت يا ايڤانوشكا فلك الليلة الثالثة". وعد الاخوان الكبيران بأن ينفذا وصية والدهما، اما الثالث فلم يعده واكتفى بحك رأسه فحسب. مات الشيخ، ودفن، ثم تذكر ابنائه وصيته، والتي تقضي بأن يذهب توماس في الليلة الاولى الى القبر، لكنه كان شديد الكسل، أو على الارجح كان خائفا، فقال لأخيه الصغير ايڤانوشكا: "علي ان استيقظ باكرا غدا صباحا، اذ يجب ان ادرس الحنطة، فأذهب عوضا عني الى قبر والدنا". وافق ايڤانوشكا، واخذ معه قطعة من خبز الجاودار الاسود، وذهب الى القبر، واضطجع قربه ونام. وعندما اعلنت الكنيسة حلول منتصف الليل؛ صفّرت الرياح، ونعق البوم في الاشجار، فُتح القبر، وخرج الشيخ وسأل: "من هناك؟"، اجابه ايڤانوشكا: "هذا انا"، فقال الوالد: "حسنا يا ولدي العزيز، سوف اكافئك لطاعتك، ثم عاد الشيخ الى قبره، وذهب ايڤانوشكا الى المنزل، وعندما سأله اخواه عما حدث لم يخبرهم شيئا. وفي الليلة الثانية حان دور باكوم للذهاب الى قبر والده، ويبدو انه كان خائفا ايضا فقال لأخيه الصغير: "سيكون يومي مزدحما غدا، فأذهب عوض عني الى قبر والدنا". فوافق ايڤانوشكا، واخذ معه قطعة فطيرة السمك، وذهب الى القبر ونام. وعند منتصف الليل فُتح القبر وخرج الشيخ مجددا، ودار بينهما الحديث ذاته، وعندما عاد ايڤانوشكا الى المنزل لم يخبر اخواه بما حدث. وفي الليلة الثالثة حان دور ايڤانوشكا، الذي ذهب الى القبر واخذ معه بضع كعكات، وارتدى معطفا من فراء الماعز. وعند منتصف الليل خرج والده من القبر، واخبره بأنه سيكافئه على طاعته وهناك صرخ بصوت هادر: "انهض ايها الحصان الكستنائي الاسرع من الرياح، اظهر امامي عند حاجتي الى الخدمة، قف على قوائمك كما العشب في وقت العاصفة". وسرعان ما ظهر حصانا يعدو، فتهتز الارض تحت حوافره، وتلتمع عيناه كنجمتين، ويخرج الدخان من فمه، واذنيه على شكل غيمة. ثم تكلم الحصان بصوت بشري: "بم تأمرني؟"، فتقدم الشيخ منه، وفجأة دخل في اذنه اليمنى، ليخرج منها بعد قليل شابا وسيما وقويا، لم ير العالم مثله من قبل، وقال: "الان اسمعني يا بني، اهبك هذا الحصان، وانت يا حصاني وصديقي الامين، عليك ان تخدم ابني كما سبق وخدمتني"، ثم سرعان ما عاد الشيخ الى قبره(١٧١).

كما يمكن ان نلاحظ ان الطقوس السحرية ظلت تمارس في روسيا حتى اوقات متأخرة، فقد مارس سكان سيبيريا طقوساً سحرية من اجل الشفاء من المرض، فقد تعود الكورياكيون الذين يسكنون سيبيريا الشمالية-الشرقية، ان يصرفوا الأوبئة والطاعون عنهم عن طريق ذبح كلباً ويربطون الأمعاء حول

عمودين ويمرون تحتها، ومما لاشك فيه إنهم يعتقدون أنهم بهذه الوسيلة يطردون روح المرض الذي يجد في أمعاء الكلب حاجزاً لا يقهر(١٧٢). وان كان القارئ يعتقد ان تلك الطقوس السحرية ترتبط فقط بالسيبيريين فإن طقوساً سحرية اخرى مورست من قبل الروس للتخلص من المرض من مواقع اخرى من روسيا حتى تاريخ قريب، إذ كان الفلاحون الروس حتى قبيل الحرب العالمية الأولى يمارسون طقساً غريباً يريدون به الحفاظ على قريتهم من وباء الطاعون أو الكوليرا، إذ تقوم النسوة العجائز في منتصف الليل باجتياز القرية وهن يستدعين سرا النساء الأخريات حتى لا يعرف الرجال شيئا عن الأمر، ويتم اختيار تسع فتيات عذارى وثلاث أرامل ويؤخذن إلى خارج القرية، وهناك ينزعن ملابسهن جميعها، ما عدا القميص التحتاني، وترسل العذارى شعورهن على أكتافهن وتغطي الأرامل رؤوسهن بشال ابيض، ثم يربطن إحدى الأرامل إلى محراث تسحبه أرملة أخرى، وتمسك العذارى التسع بالمناجل، بينما تقبض بقية النسوة على مواد مختلفة ذات مظهر مخيف ضمنها جماجم لحيوانات، ثم يسير الجميع حول القرية، وهن يولولن ويصرخن، ثم يحرثن أخدودا لتتمكن أرواح الأرض القوية من الظهور، وكذلك لمنع وصول الشر(١٧٣).وفي بيلاروسيا(روسيا البيضاء) كان سكان القرى يحاولون تسخير القوى الخطرة الكامنة في التوائم(اعتقد كثير من الشعوب بخطورة التوأمين) لحماية القرية وسكانها وحيواناتها وحقولها من خطر الرزايا المحدقة مثل الأوبئة والبرد والأمراض المعدية، فعندما كانت البلية تقترب من حدود القرية كانوا يسرعون إلى تأدية طقس الحراثة، وكان التوائم يشاركون فيه، إذ يأخذ الإخوان التوأمان الثورين التوأمين، ويأخذان بالإضافة إلى ذلك المحراث المصنوع من شجرة مزدوجة الجذع أي كأنها شجرة توأمية ثم يحرثان القرية ليلا ثلاث مرات ويرسمان أثناءها حلقة سحرية(١٧٤). ومن اجل اسقاط المطر كانوا يمارسون طقساً سحرياً، إذ كان الفلاحون في روسيا حتى القرن التاسع عشر يُخرجون من القبر في المنطقة التي ينالها الجدب جثة شخص مات من الافراط في الشراب فيغرقونها في اقرب مستنقع أو بحيرة وهم مقتنعون تماماً ان ذلك سيؤدي الى سقوط المطر الذي هم في اشد الحاجة إليه. ففي عام ١٨٦٨ حين توقع الناس سوء المحصول نتيجة لاستمرار الجدب قام اهالي احدى القرى في مقاطعة تاراشانسك(Tarashchansk) بإخراج جثة احد المنشقين من جماعة الراسكولنيك(Raskolnik)(وهم جماعة منشقة عن الكنيسة الارثوذكسية) كان قد مات في شهر كانون الاول السابق وانهال بعضهم بالضرب على الجثة أو على ما بقي منها- حول الرأس- وهم يصحيون: "اعطنا مطراً"، بينما اخذ الباقون يصبون عليها الماء من خلال غربال(١٧٥).

الخلاصة:

١. **ماذا يمكن ان نستخلص من معرفة الاصول الدينية للمجتمع الروسي؟ لا يمكن ان نباعد الصواب ان قلنا ان دراسة الاصول الدينية لأي مجتمع ومنها روسيا مهم بحد ذاته لأنه يكشف حالة مهمة من تطور عميق لأفكارنا الدينية المعاصرة بكل سلبياتها وايجابياتها.**
٢. **هل يمكن لدراسة الاصول الدينية ان تقدم حلول لأزماتنا الدينية؟ هنا ايضاً نحتاج الى ان نكون قادرين على فهم طبيعة اصول الدينية للمجتمع الخاضع للدراسة، لأن تفكيك الاصول الدينية سيجعل من الافكار الدينية عرضة للدراسة والنقد، وبالتالي سيزيل عنها القداسة وسيجعل من الديانات القدرة على التعايش بشكل سلمي وحتمي.**
٣. **التساؤل الثالث والمهم: هل لدراسة الاصول الدينية القدرة على فهم الموروث الحضاري؟ ان هذه الدراسة برهنت بشكل جيد ان الموروث الحضاري الروسي كان له جذور قديمة جداً مرتبطة بعبادتهم القديمة والتي لم تستطع المسيحية ان تقضي عليها، وبالتالي شكلت المسيحية الغطاء الذي اختبأت تحته تلك المعتقدات الضاربة في القدم وظلت حية في الاذهان الشعبية.**
٤. **تمثل المعتقدات القديمة نمط ديني شعبي ذا قابلية على الحياة لا يمكن القضاء عليه عن طريق الديانات المنظمة كالديانة المسيحية، فالشامانية مثلاً، ليست ديانة بقدر ما هي طقوس معقدة ظلت قائمة لآلاف السنين رغم وجود المسيحية، فإنها ظلت حية وقائمة، وان وجود الطقوس السحرية حتى في القرى الزراعية الروسية دلالة واضحة ان المعتقدات الشعبية لا يمكن لها ان تموت.**

٥. هل يمكن ان نطبق دراسات مماثلة في مجتمعاتنا العربية أو مجتمعات الشرق الاوسط كوسيلة للقضاء على التطرف؟ من الممكن ان تُصبح دراسات الاصول الدينية للمجتمعات في الشرق وسيلة للتعايش السلمي والحتمي للديانات المتصارعة والمحتدمة، اذا ما أخضعت تلك الديانات للدراسة والتحليل والنقد العلمي وبالتالي تصبح وسيلة للتعايش لا للحرب.

الهوامش:

[١]) بيوتر يبيڤانوف وايڤان ڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي، ترجمة: خيري الضامن ونقولا الطويل،(موسكو: دار التقدم، بلا. ت)،ص١٦.

[2]) Owen Jarus, "6000 Year Old Temple With Possible Sacrificial Altars Discovered", in: Live Science, October, 20, 2014; April Holloway, "Archeologists unearth 6000 Year Old Temple in Ukraine", in: Ancient Origins, 21 October, 2014.

[٣]) حول دراسة مفصلة عن حضارة تريپولي انظر:

Linda Ellis, The Cucuteni-Tripolye Culture: Study in Technology and The Origins of Complex Society,(Oxford, 1984).

[٤]) يبيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص١٤.

[٥]) للمزيد من التفاصيل عن قرية مايكوب انظر:

Andrea L. Stanton(editor), Cultural Sociology of the Middle East, Asia, and Africa: An Encyclopedia,(Los Angeles, 2012), Vol: 1, P.5.

[٦]) يبيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص١٥.

[٧]) بيار غريمال وآخرون، تاريخ اوروبا العام،(بيروت: منشورات عويدات،٢٠١٢)،ج١،ص٨٠.

[٨]) للمزيد من التفاصيل عن تاريخ السكيثيين انظر:

James William Johnson, ,"The Scythian: His Rise and Fall", in: Journal of the History of Ideas, Vol. 20, No. 2, 1959, pp.250–257.

[٩]) يبيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص٢١-٢٢؛ انظر أيضاً دراسة حديثة عن المقابر السكيثية في:

Larissa Bonfante, "The Scythians: Between Mobility, Tomb Architecture, and Early Urban Structures", in: TheBarbarians of Ancient Europe: Realities of Interactions,(Cambridge, 2011),PP.107ff.

[10]) Paul Barford, The Early Slavs: Culture and Society in Early Medieval Eastern Europe, (New York, 2001),P.1; Zbigniew Kobylinski, "The Slavs", in: The New Cambridge Medieval History, Edited By: Paul Fouracre,(Cambridge,2005),Vol: I, P.526.

جورج فرنادسكي، تاريخ روسيا، ترجمة: عبدالله سالم الزليتني،(ليبيا: المكتب الوطني للبحث والتطوير،٢٠٠٧)،ص١٨.

[١١]) يبيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص٢٥.

Kobylinski, The Slavs, P.526.

[12]) Tacitus, A Treatise on The Situation, Manners and Inhabitants of Germany,(Oxford, 2013), No.46.

[١٣]) پروكوپيوس القيصري(Procopius of Casarea): ابرز مؤرخي القرن السادس الميلادي، والذي صاحب القائد البيزنطي بليزاريوس(Blesarius) في حملاته الخارجية لاستعادة الإمبراطورية الرومانية الغربية من ايدي الجرمان، وقد دون كل احداث هذه الحملات في عدة كتب تاريخية، اثنتين عن الحروب القوطية، واثنتين عن الحروب الفارسية، وكتاباً عن الحرب الوندالية؛ كما ترك لنا كتاباً عن المنشآت التي اقامها الامبراطور جستنيان في الامبراطورية؛ اما اهم كتبه على الاطلاق فهو كتابه المسمى التاريخ السري والذي

دون فيه ما لم يرق له عن عصر الامبراطور جستنيان، بل تحامل على الامبراطور نفسه وزوجته ثيودورا. انظر: طارق منصور محمد، قطوف الفكر البيزنطي،(القاهرة: مصر العربية للنشر والتوزيع،٢٠٠٢)،ج١،ص١٢-١٣.

[14]) Kobylinski, The Slavs, P.524.

[١٥]) يبيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص٣٣.

[١٦]) المصدر نفسه،ص٢٦-٢٨.

[١٧]) المصدر نفسه،ص٢٨.

[١٨]) المصدر نفسه،ص٢٨-٢٩، ٣٣.

[١٩]) المصدر نفسه،ص٣٣.

[٢٠]) المصدر نفسه،ص٣٠-٣١.

[٢١]) أ. س. ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات، ترجمة: حسان ميخائيل اسحاق،(دمشق: منشورات علاء الدين للطباعة والنشر،٢٠٠٩)،ص٩٧؛ ميرتشيا الياده، تاريخ المعتقدات والافكار الدينية، ترجمة: عبد الهادي عباس،(دمشق: دار دمشق للنشر،١٩٨٧)،ج٣،ص٣٤.

Alison Hilton, Russian Folk Art,(Indiana, 1995),P.137.

[٢٢]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص٩٨-٩٩.

[٢٣]) يبيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص٣٢-٣٣.

Hilton, Russian Folk Art,P.140.

[٢٤]) يبيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص٣٣.

[25]) Kennedy, Russian and Slavic Myth and Legend,P.67-68.

[٢٦]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص١٠١؛

Kennedy, Russian and Slavic Myth and Legend,P.233.

[٢٧]) اصل الشعوب الجرمانية غامض، خلال عصر البرونز الاخير يُعتقد انهم سكنوا جنوب السويد، وشبه الجزيرة الدنماركية، وشمال المانيا؛ وفي ايام يوليوس قيصر وصل الجرمان غرب نهر الراين وواصلوا هجراتهم نحو الجنوب الى نهر الدانوب؛ ويعود اول صدام لهم مسلح لهم مع الرومان كان في القرن الثاني قبل الميلاد. انظر:

Encyclopedia Britannica, Germanic Peoples.

[٢٨]) اللاتفيون والليتوانيون: من اسرة اللغات الهندية-الاوروبية، يعيشون على الشواطئ الجنوبية الشرقية لبحر البلطيق؛ وقد اطلق عليهم المؤرخ الروماني اكيتوس اسم آيستي (Aestii). انظر:

Encyclopedia Britannica, Balt People.

[٢٩]) حول الإله پيركونيس انظر:

Kennedy, Russian and Slavic Myth and Legend,P.216-217.

[٣٠]) يبيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص٣٣؛ ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص٩٧-٩٨؛ آرثر كورتل، قاموس اساطير العالم، ترجمة: سهى الطريحي،(دمشق: دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع،٢٠١٠)،ص١٥٠؛ امام عبد الفتاح امام، معجم اساطير وديانات العالم،(القاهرة: مكتبة مدبولي،١٩٩٥)،ج٣،ص١٥٦؛

V. P. Darkevich, "Topor Kak Simvol Peruna V dervnerusskom inzychestve", in: Sovetskaia arkheologiia, no.4, 1961, PP.91-102; Mercia McDermott, Bulgarian Folk Customs,(London, 1988),P.14; Hilton, Russian Folk Art,P.137; James Frazer, The Golden Bough,(New York,2002),P.161; Kennedy, Russian and Slavic Myth and Legend,P.77; 217-218.

[31]) Kennedy, Russian and Slavic Myth and Legend,P.217.

[32]) Ibid,P.322.

[٣٣]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص١٠٢؛ امام، معجم اساطير وديانات العالم،ج٢،ص٤٢٦؛

Hilton, Russian Folk Art,P.142.

[٣٤]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص٩٩-١٠٠؛ امام، معجم اساطير وديانات العالم،ج٣،ص٤١٧؛

Marija Gimbutas, "The Lithuanian God Velnian", in: Myth in Indo-European Antiquity, edited By: Gerald J. Larson,(Berkeley,1974),PP.87-92; McDermott, Bulgarian Folk Customs, P.14, 65; Kennedy, Russian and Slavic Myth and Legend,P.308.

[35]) Kennedy, Russian and Slavic Myth and Legend,P.80, 291.

[٣٦]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص٩٩؛ امام، معجم ديانات واساطير العالم،ج١،ص١٦٢.

Marija Gimbutas, "Baba Yaga", in: Encyclopedia of Religion, Editor: Lindsay Jones,(New York,2005),Vol: 2, P.727.

[٣٧]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص٩٩.

[٣٨]) المصدر نفسه،ص١٠١-١٠٢.

McDermott, Bulgarian Folk Customs. 14.

[٣٩]) يبيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص٣١-٣٢.

[٤٠]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص١٠٠.

[٤١]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص١٠٠؛ امام، معجم ديانات واساطير العالم،ج١،ص٢٨٩.

Roman Jakobson, "Slavic Mythology", in: Funk and Wagnalls Standard Dictionary of Folklore Mythology and legend,(New York, 1950),Vol:2,PP.1025-1028; McDermott, Bulgarian Folk Customs,P.14.

[٤٢]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص١٠٠؛

Kennedy, Russian and Slavic Myth and Legend,P.149.

[٤٣]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص١٠١؛ امام، معجم ديانات واساطير العالم،ج٣،ص٢٧٣.

[٤٤]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص١٠١؛ يبيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص٣٢؛ امام، معجم ديانات واساطير العالم،ج٣،ص٢٨٢.

[٤٥]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص١٠١.

[٤٦]) يبيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص٣١.

[٤٧]) المصدر نفسه،ص١٦.

[٤٨]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص٩٨.

[٤٩]) يبيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص٥١.

[٥٠]) المصدر نفسه،ص٦٦-٦٧.

[٥١]) المصدر نفسه،ص٣١.

[٥٢]) المصدر نفسه،ص٣٢.

[٥٣]) المصدر نفسه،ص٣٢.

[٥٤]) المصدر نفسه،ص٣٣.

(٥٥) المجامع المسكونية: هي الاجتماعات الرسمية للأساقفة لوضع عقيدة أو نظام للكنيسة المسيحية، وعادة ما يسمى المستوى الادنى من تلك الاجتماعات سنودس أي المجمع الكنسي، وتمثل المجامع المسكونية الكنيسة كلها؛ تحدد الكنيسة المجمع المسكوني بالصيغة التالية: انه مجمع حازت تحديداته وقوانينه القبول في المسكونة كلها؛ وليس من الضروري ان يكون عدد الاساقفة الحاضرين وافراً بل يكفي ان يكون المجمع قد دُعي وعُقد؛ وليس من الضروري ان تكون اقطار العالم كلها ممثلة فيه أو ان اساقفتها قد دعوا اليه، ولكن ان كل ما يطلب لاعتبار المجمع مسكونياً ان يصير الاعتراف به في كل انحاء العالم(المسيحي) على انه مجمع مكسوني. وفي الوقت الذي تعترف فيه الكنيسة الكاثوليكية بـ ٢١ مجمع مسكوني فإن الكنيسة الارثوذكسية لا تعترف إلا بـ ٧ فقط وهي المجامع المسكونية السبع الاولى من تاريخ الكنيسة وهي: مجمع نيقية عام ٣٢٥م، مجمع القسطنطينية الاول عام ٣٨١م، مجمع افسوس عام ٤٣١م، مجمع خالقيدون عام٤٥١م، مجمع القسطنطينية الثاني عام ٥٥٣م، مجمع القسطنطينية الثالث عام ٦٨١م، مجمع نيقية الثاني ٧٨٧م. للمزيد من التفاصيل عن المجامع الكنسية وقراراتها انظر: حنانيا الياس كساب، مجموعة الشرع الكنسي أو قوانين الكنيسة المسيحية الجامعة،(بيروت: منشورات النور،١٩٩٨)،ص١٠-١٤،ص٤١-٨٣٥؛ انظر كذلك: جون ر. هينليس، معجم الاديان، ترجمة: هاشم احمد محمد، مراجعة وتقديم: عبد الرحمن الشيخ،(القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية،٢٠١٠)،ص١٧٦-١٧٧.

(٥٦) ت. و. ارنولد، الدعوة الى الإسلام: بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية، ترجمة: حسن ابراهيم حسن وعبد المجيد عابدين واسماعيل النحراوي،(القاهرة: مكتبة النهضة المصرية،١٩٤٧)،ص٢٠٨-٢٠٩؛ هاشم صالح التكريتي، مقدمة في تاريخ روسيا الحديث: قيام الدولة الروسية وبداية توسعها،(بغداد: دار ومكتبة عدنان للطباعة والنشر والتوزيع،٢٠١٥)،ص١٨.

Thomas Hopko, "Vladimir I", in: Encyclopedia of Religion, Editor: Lindsay Jones,(New York,2005),Vol:14, PP.9631-9632; Daniel H. Shubin, A History of Russian Christianity,(New York,2004),Vol: I, P.22-27; Kennedy, Russian and Slavic Myth and Legend,P.303-304.

وقد اشارت الروايات الاسلامية كذلك الى حادثة دخول المسيحية الى روسيا انظر على سبيل المثال: عز الدين ابن الاثير(ت ٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، تحقيق: محمد يوسف الدقاق،(بيروت: دار الكتب العلمية،١٩٨٧)،ج٧،ص٤٢٢-٤٢٣.

(٥٧) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص٤٨٣؛ فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص٥١-٥٢.

(٥٨) يبيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص٤١.

(٥٩) المصدر نفسه،ص٤١-٤٢، ٥٤.

(٦٠) يبيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص٤٢؛ التكريتي، مقدمة في تاريخ روسيا الحديث،ص٢١-٢٢.

(٦١) فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص٦٤-٦٥.

(٦٢) للمزيد من التفاصيل عن اللغة الفرانكونية انظر:

Encyclopedia Britannica, West Germanic Langugees.

(٦٣) تشارلز أ. موزر، تاريخ الادب الروسي،(دمشق: منشورات الهيئة السورية للكتاب،٢٠١١)،ص١٠-١١.

(٦٤) المتروبوليان: في الكنائس الكاثوليكية الرومانية، والارثوذكسية الشرقية، يمثل رئيس مقاطعة كنسية. انظر:

Encyclopedia Britannica, Metropolitan.

(٦٥) الكاتدرائية: هي كنيسة مسيحية تحتوي على الكرسي الاسقفي، وبذلك تكون كنيسة مركزية للأبرشية. انظر:

Encyclopedia Britannica, Cathedral.

(٦٦) يبيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص٤٦، ٥٤-٥٥.

Shubin, A History of Russian Christianity, Vol: I, P.37-41, 77.

(٦٧) الاسقف: يمثل الاسقف الراعي الرسمي والمشرف على الابرشية، وقد حافظت الكنيسة الكاثوليكية والارثوذكسية على حد سواء على وجهة النظر القائلة بأن الاساقفة هم خلفاء الرسل. انظر:

Encyclopedia Britannica, Bishop.

[٦٨]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص٤٨٣.

[٦٩]) فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص٥٣.

[٧٠]) ان هذه الفكرة بمجملها مقتبسة عن افكار القديس پولس الذي ناقش بإسهاب فكرة كون الايمان بالمسيح يخلص المؤمن من الشريعة الموسوية، انظر: رومة، ٧: ٥، ٧: ٧-٢٣؛ كورنثوس الاولى،١٥: ٥٥-٥٦؛ تيموثاوس الاولى،١: ٨-١٠، ١٤؛ غلاطية،٣: ٢١-٢٤. وحول دراسة حديثة لهذه المسألة انظر: اسامة عدنان يحيى، السوما-الهاوما والسيد المسيح: نظرة في معتقدات شرقية قديمة،(بغداد: اشوربانيبال للكتاب،٢٠١٧)،ص٢٦٥-٢٧٦.

[٧١]) موزر، تاريخ الادب الروسي،ص١٤-١٦.

[٧٢]) يبيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص٤٢.

[٧٣]) فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص٦٥.

[74]) Shubin, A History of Russian Christianity, Vol: I, P.77.

[٧٥]) موزر، تاريخ الادب الروسي،ص١١-١٢.

[٧٦]) يبيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص٦٧.

[٧٧]) المصدر نفسه،ص٦٨.

[٧٨]) يبيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص٥٣-٥٤؛ فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص٦٥.

[٧٩]) موزر، تاريخ الادب الروسي،ص١٢.

[٨٠]) فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص٩٠-٩١.

[٨١]) الكنيسة النسطورية: نسبة الى نسطوريوس الذي عاش في القرن الخامس الميلادي ناقش نسطوريوس مسألة الاقانيم، وقال ان في المسيح اقنومين احدهما الهي، والثاني انساني غير ملازمين بالضرورة احدهما للآخر، بمعنى ان المسيح عندما ولد كان انسانا محضا، ثم سكنت فيه الالوهية ولازمته الى حين صلبه وحينئذ فارقته، فلم يكن اذاً على الصليب سوى انسان متألم، ولذلك كان اتباع نسطوريوس يسمون العذراء والدة المسيح وليس والدة الاله، لكن الكنيسة رفضت اراء نسطوريوس وعدتها بدعة بسبب مخالفتها بعض النصوص المسيحية. انظر: احمد عبد الوهاب، اختلافات في تراجم الكتاب المقدس وتطورات هامة في المسيحية،(القاهرة: مكتبة وهبة، بلا. ت)،ص١٠٩-١١٠؛ يحيى، السوما-الهاوما والسيد المسيح،ص١٢٦-١٢٧.

[٨٢]) محمد سهيل طقوش، تاريخ مغول القبيلة الذهبية والهند،(بيروت: دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع،٢٠٠٧)،ص٤٣-٤٤.

[٨٣]) المصدر نفسه،ص٤٩.

[٨٤]) ارنولد، الدعوة الى الإسلام،ص٢٠٦-٢٠٧.

[٨٥]) المصدر نفسه،ص٢٠٧.

[٨٦]) طقوش، تاريخ مغول القبيلة الذهبية والهند،ص٧٠.

[٨٧]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص٤٨٣.

[88]) Shubin, A History of Russian Christianity, Vol: I, P.97.

[٨٩]) حول نص معركة كوليكوڤو كما وردت في زاودنشينا انظر: يبيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص٨٩-٩١.

[٩٠]) فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص٩٢-٩٣.

[٩١]) الأبرشية: وهي منطقة اقليمية يديرها الاسقف. انظر:

Encyclopedia Britannica, Diocese.

[٩٢]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص٤٨٤؛ فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص٩١-٩٢.

[٩٣]) بيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص١١٢.

[٩٤]) فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص١١٥.

[٩٥]) بيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص١١٢؛ فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص١١٥.

[٩٦]) فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص١١٨.

Francis D. K. Ching, Mark Jarzombek and Vikramditya Prakash, A Global History of Architecture,(New Jersey, 2011),P.500-501; Joan Markessini, Around The World of Orthodox Christianity: Five Hundred Million Strong The Unifying Aesthetic Beauty,(Pennsylvania,2012),P.25;

ومن اجل دراسة معمارية مفصلة عن كاتدرائية الظهور انظر:

T. V. Tostaya, The Assumption Cathedral of the Moscow Kremlin: Fir the 500th Anniversary Russian Culture,(Moscow,1979).

[٩٧]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص٤٨٤.

[٩٨]) بيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص١٣٣.

[٩٩]) المصدر نفسه،ص١٣٤.

[١٠٠]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص٤٨٤؛ فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص١١٥-١١٦.

[١٠١]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص٤٨٤؛ بيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص١٣٣-١٣٤، ١٣٧-١٣٨؛ فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص١١٦-١١٧.

[١٠٢]) بيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص١٣٥.

[١٠٣]) فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص١١٧-١١٩.

[١٠٤]) المصدر نفسه،ص١١٩؛

Markessini, Around The World of Orthodox Christianity,P.26.

[١٠٥]) بيڤانوف وڤيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوڤييتي،ص١٣٥.

[١٠٦]) المصدر نفسه،ص١٥١-١٥٢.

[١٠٧]) فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص١٣٤.

[١٠٨]) المصدر نفسه،ص١٣٦-١٣٧.

[١٠٩]) ينص قانون الايمان المسيحي للكنيسة الارثوذكسية الى مسألة الثالوث بالصيغة التالية: "نؤمن بإله واحد، أب ضابط الكل، خالق السماء والارض، كل ما يرى وما لا يرى؛ وبرب واحد يسوع المسيح، أبن الله الوحيد، المولود من الاب قبل كل الدهور، إله من إله، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، ذات الجوهر من الأب، الذي به كان كل شيء، الذي من اجلنا نحن البشر، ومن اجل خلاصنا، نزل من السماء، وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء، وصار انسانا، وصلب عنا على عهد بيلاطس البنطي، تألم، ومات، وقبر، وقام في اليوم الثالث كما في الكتب، وصعد الى السماء، وجلس عن يمين الاب، وايضا يأتي بمجد عظيم ليدين الاحياء والاموات، الذي لا فناء لملكه؛ وبالروح القدس الرب المحيي، المنبثق من الاب والابن، الذي مع الاب والابن يسجد له ويمجد، الناطق بالأنبياء؛ وبكنيسة واحدة جامعة، مقدسة، رسولية؛ ونعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا؛ ونترجى قيامة الموتى، والحياة في الدهر الاتي". انظر: علي زيعور، اوغسطينوس مع مقدمات في العقيدة المسيحية والفلسفة الوسيطة،(بيروت: دار اقرأ،١٩٨٣)،ص٣٦؛ سهيل زكار، الاناجيل، الاناجيل: النصوص الكاملة،(دمشق: دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع،٢٠٠٨)،ص١٢.

[١١٠]) ان المسيح حسب الكنيسة له طبيعتين إلهية وانسانية متحدتين في شخص واحد، شخص ابن الله المتجسد، وهذا الاتحاد قائم بدون انقسام، أو انفصال، أو تحول، أو اختلاط؛ وان كلا من هاتين الطبيعتين تحتفظ بصفاتها الخاصة، بمعنى: ان يسوع المسيح اله تام، وحقيقي؛ وفي الوقت ذاته انسان تام وحقيقي مركب من نفس ناطقة، وجسد مساو لجسد البشر، وشبيه بالبشر ما عدا الخطيئة،

وبالتالي فإن جسد المسيح لم يهبط من الاعلى، وليس مركبا من عناصر سماوية، لقد كان جسدا بشريا اخذه من امه مريم العذراء عن طريق ولادة حقيقية، لأنه لو كان الها فقط وكانت انسانيته مجرد وهم وخيال فكيف يكون دخول اللاهوت الى صميم البشرية ليقدسها؟ ولو كان المسيح انسانا فقط فكيف يكون جسرا به تُنقل الى الانسانية الحياة الالهية نفسها؟ ولو كان اللاهوت والناسوت في المسيح منفصلين فكيف يتم بين الله والانسان ذلك الاتحاد الذي به تتجدد الانسانية وتتأله؟، وبالتالي ان هذا الاعتقاد في شخص المسيح شرط اساسي ليدرك البشر الخلاص الذي منحه الرب بهم. انظر: زيعور،اوغسطينوس،ص٢٢، ٣١.

[١١١]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص٤٨٥-٤٨٦؛ يبيفانوف وفيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوفييتي،ص١٩٦؛ فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص١٣٧-١٣٩؛

Sergei Hackel, " Nikon", in: Encyclopedia of Religion, Editor: Lindsay Jones,(New York,2005),Vol: 10,PP.6621-6622.

[١١٢]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص٤٨٥-٤٨٦؛ يبيفانوف وفيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوفييتي،ص١٩٦؛ فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص١٣٩-١٤٠.

[١١٣]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص٤٨٦؛ يبيفانوف وفيدوسوف، تاريخ الاتحاد السوفييتي،ص٢١٨؛ فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص١٦٠.

[١١٤]) فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص١٨١؛ جلال يحيى، التاريخ الاوربي الحديث والمعاصر،(الاسكندرية: المكتب الجامعي الحديث، بلا. ت)،ص١١٣.

[١١٥]) جون فيرغسون، الموسوعة الصوفية والديانات السرية، ترجمة: محمد الجورا،(دمشق: دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع،٢٠١٤)،ص٤١٦-٤١٧؛

The Canadian Encyclopedia, Doukhobors.

[١١٦]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص٤٨٧.

[١١٧]) فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص١٨٢.

[١١٨]) ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات،ص٤٨٧.

[١١٩]) فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص١٨٢-١٨٣.

[١٢٠]) المصدر نفسه،ص١٨٣.

[١٢١]) فرنادسكي، تاريخ روسيا،ص،ص١٨٤؛

The Canadian Encyclopedia, Doukhobors.

[١٢٢]) المعمدانية: جزء من المسيحية البروتستانتية الذين يشتركون في المعتقدات الرئيسية مع معظم البروتستانت ولكنهم يصرون على ان المؤمنين فقط يجب ان يعتمدوا، ويجب ان يتم ذلك عن طريق الغطس في الماء بدلاً من الرش أو صب الماء؛ ولا يشكل المعمدانيون كنيسة واحدة أو هيكل طائفي واحد، ويصر بعض المعمدانيين على عدم وجود سلطة بشرية. انظر:

Encyclopedia Britannica, Baptist.

[١٢٣]) المصدر نفسه،ص٢٥٦-٢٥٧.

[١٢٤]) المصدر نفسه،ص٢٥٧-٢٥٨.

[١٢٥]) استولى ايفان الرابع على سيبيريا عام ١٥٨١م. للمزيد من التفاصيل انظر: التكريتي، مقدمة في تاريخ روسيا الحديث،ص١٣٥-١٣٨.

[126]) Mircea Eliade, "Shamanism: An Overview", in: Encyclopedia of Religion, Editor: Lindsay Jones,(New York,2005),Vol:12,P.8269; Anna-Lewna Siikala, "Shamanism: Siberian and Inner Asian Shamanism", in: Encyclopedia of Religion, Editor: Lindsay Jones,(New York,2005),Vol:12,P.8280.

[١٢٧]) اللغة التغوزية أو لغة الـ مانشو-تونغوز(Manchu-Tungus Languages)، وهي احدى اللغات الالطائية في سيبيريا، وتنقسم بين ١٠-١٧ لغة يتحدث بها الآن حوالي ٧٠,٠٠٠ شخص موزعين في منطقة شاسعة تمتد من شمال الصين عبر منغوليا الى الحدود الشمالية لروسيا. انظر:

Encyclopedia Britannica, Manchu-Tungus Languages.

[١٢٨]) ميرتشيا الياده، الاساطير والاحلام والاسرار، ترجمة: حسيب كاسوحة،(دمشق: منشورات وزارة الثقافة،٢٠٠٤)،ص،١٢٤؛ اسامة عدنان يحيى، السحر والطب في الحضارات القديمة: دراسة تاريخية مقارنة،(دمشق: صفحات للدراسات والنشر،٢٠١٩)،ص٣٠٩.

[١٢٩]) اللغة البالية(Balinese language): وهي لغة شعب جزيرة بالي(Bali) واندونيسيا(Indonesia). انظر:

Encyclopedia Britannica, Balinese.

[130]) Siikala, Shamanism: Siberian and Inner Asian Shamanism,P.8280-8281.

[١٣١]) كارلتون كون، قصة الإنسان، ترجمة: محمد توفيق حسين وعبد المطلب الأمين، مراجعة: محمود الأمين،(بغداد: المكتبة الأهلية، بلا. ت)،ص١٤٥.

[١٣٢]) الياده، الأساطير والاحلام والاسرار،ص١١٨.

[١٣٣]) الشعب السامويدي: وهم شعب يتحدث احدى لغات سيبيريا ومنطقة القطب الشمالي الروسية، وتشكل مع اللغة الفنلندية الاوغرية مجموعة اللغات الاورالية، وتنقسم اللغات السامويدية الى فئتين الجنوبية والشمالية. انظر:

Encyclopedia Britannica, Samoyedic languages.

[134]) Siikala, Shamanism: Siberian and Inner Asian Shamanism, P. 8281.

[135]) Ibid, 8281-8282.

[١٣٦]) تمثل عشيرة الياقوت من اهم القبائل السيبيرية التي اتضحت من خلالها الطقوس الشامانية ومن اجل الحصول على دراسة مفصلة حول معتقداتهم انظر:

Laurence Delaby, "Yakut Religion", in: Encyclopedia of Religion, Editor: Lindsay Jones,(New York,2005),Vol:14, PP.9864-9866.

[137]) Siikala, Shamanism: Siberian and Inner Asian Shamanism, 8282.

[138]) Ibid, 8282.

[139]) Eliade, Shamanism: An Overview,P.8269; Siikala, Shamanism: Siberian and Inner Asian Shamanism,P.8282-8283.

[١٤٠]) ميشال بيران، الشامانية: فلسفة للحياة، ترجمة: ادريس كثير،(ابو ظبي: هيئة ابو ظبي للسياحة والثقافة،٢٠١٣)،ص٤٨-٤٩.

[141]) Eliade, Shamanism: An Overview,P.8270; Siikala, Shamanism: Siberian and Inner Asian Shamanism,P.8282-8283.

[142]) Eliade, Shamanism: An Overview,P.8270.

[143]) Ibid,P.8270.

[144]) Mircea Eliade, Shamanisms: Archaic Techniques of Ecstasy,(London,1964),P.13; Eliade, Shamanism: An Overview,P.8270.

[145]) Siikala, Shamanism: Siberian and Inner Asian Shamanism,P.8282.

[146]) Eliade, Shamanisms: Archaic Techniques of Ecstasy,P.42-44; Eliade, Shamanism: An Overview,P.8270-8271; Siikala, Shamanism: Siberian and Inner Asian Shamanism,P.8283;

ميرتشيا الياده، التنسيب والولادات الصوفية، ترجمة: حسيب كاسوحة،(دمشق: منشورات وزارة الثقافة،١٩٩٩)،ص١٨٤-١٨٥.

[147]) Siikala, Shamanism: Siberian and Inner Asian Shamanism,P.8283-8284;

كورتل، قاموس اساطير العالم،ص١٢٤.

[148]) Siikala, Shamanism: Siberian and Inner Asian Shamanism,P.8283-8284.

كورتل، قاموس اساطير العالم،ص١٠٥.

[١٤٩]) كورتل، قاموس اساطير العالم،ص١٠٩؛ امام، معجم ديانات واساطير العالم،ج١،ص٢٢٧-٢٢٨.

[١٥٠]) كورتل، قاموس اساطير العالم،ص١٢٤؛ امام، معجم ديانات واساطير العالم،ج٣،ص٤٧٦.

(١٥١) كورتل، قاموس اساطير العالم،ص١٠٢.

(١٥٢) ميرتشيا الياده، تاريخ المعتقدات والافكار الدينية، ترجمة: عبد الهادي عباس،(دمشق: مطابع الشام،١٩٨٧)،ج١،ص٣١٤.

(153) Siikala, Shamanism: Siberian and Inner Asian Shamanism,P.8283-8284.

كورتل، قاموس اساطير العالم،ص١٠٧.

(154) Eliade, Shamanisms: Archaic Techniques of Ecstasy,P.115-122; Eliade, Shamanism: An Overview,P.8271-8272;

الياده، تاريخ المعتقدات والافكار الدينية،ج٣،ص٢٠؛ الياده، التنسيب والولادات الصوفية،ص١٩٠-١٩١.

(155) Siikala, Shamanism: Siberian and Inner Asian Shamanism,P.8284-8285.

(156) Eliade, Shamanism: An Overview,P.8272; Siikala, Shamanism: Siberian and Inner Asian Shamanism,P.8285-8286.

(157) Eliade, Shamanism: An Overview,P.8272.

(158) Ibid,P.8272.

(159) Ibid,P.8272-8273.

(١٦٠) م. ف. البيديل، سحر الأساطير: دراسة في الاسطورة والتاريخ والحياة، ترجمة: حسان ميخائيل اسحاق،(دمشق: دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة،٢٠٠٨)،ص٢٠٢؛ يحي، السحر والطب في الحضارات القديمة،ص٩٠.

(161) Eliade, Shamanism: An Overview,P.8273.

(١٦٢) الياد، الأساطير والاحلام والاسرار،ص٩٩-١٠٠؛ يحيى، السحر والطب في الحضارات القديمة،ص٣١٠.

(١٦٣) كورتل، قاموس اساطير العالم،ص٩٦-٩٧؛ كامبل، البطل بألف وجه،ص٢٠٨؛ يحيى، السحر والطب في الحضارات القديمة،ص٣١٤.

(164) (164) Eliade, Shamanism: An Overview,P.8273.

يحيى، السحر والطب في الحضارات القديمة،ص٣١٦.

(١٦٥) كورتل، قاموس أساطير العالم،ص١٣٣؛كامبل، البطل بألف وجه،ص١٠٤-١٠٥؛ يحيى، السحر والطب في الحضارات القديمة،ص٣١٤-٣١٥.

(١٦٦) بيران،الشامانية،ص٨٤-٨٥.

(167) Kennedy, Russian and Slavic Myth and Legend,P.99.

(168) Kennedy, Russian and Slavic Myth and Legend,P.80, 115; Marija Gimbutas,"Perun", in: Encyclopedia of Religion,(New York,2005),Vol: 10, P.7062.

(169) Kennedy, Russian and Slavic Myth and Legend,P.90.

(١٧٠) الياده، التنسيب والولادات الصوفية،ص٨٦، ١٢٨.

(١٧١) فيرا دي بلومينتال، الجبل الذهبي: حكايات شعبية من روسيا، ترجمة: مايسة عواد،(ابو ظبي: هيئة ابو ظبي للثقافة والتراث،٢٠١٠)،ص٦٦-٦٩.

(١٧٢) جيمس فريزر، الفولكلور في العهد القديم، ترجمة: نبيلة ابراهيم، مراجعة: حسن ظاظا،(القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٧٢)،ص٢٤٦.

(١٧٣) لطفي الخوري، معجم الأساطير،(بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة،١٩٩٠)،ج٢،ص١٩٣.

(١٧٤) البيديل، سحر الأساطير،ص١٩٧.

(١٧٥) جيمس فريزر، الغصن الذهبي: دراسة في السحر والدين، ترجمة: احمد ابو زيد،(القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر،١٩٧١)،ج١،ص٢٧٢.